

دراسة وتحليل

الآبيات: من ١: ٧:

اللغة:

عفار الرسم: درس وبلى فهو لازم كما في هذا البيت، وقد يتعدى بنفسه فيقال: عفته الريح أى: محته وأزالته.

ذات الأصابع، والجواء، وعذراء: أسماء أماكن كانت في إمارة بنى جفنة من غساسنة الشام - وكان (حسان) - رضى الله عنه: - ينزل في هذه الأماكن يوم أن كان ينتجهم بشعره في الجاهلية، والأولان كانا بأكناف دمشق والثالث على بريد منها.

منزلها: المراد منازلها لأن المفرد المضاف إلى الجمع يعم، والضمير المضاف إلى المواطن الثلاثة السابقة.

خلاء: خاوية على عروشها - منزلها خلاء: تأكيد للمعنى المفهوم من عفو تلك المواطن، والغرض منه إبراز ما يؤلمه وهو خوائها من أهلها، والبيت خبر أريد منه التحسر والتحزن والألم الممعن.

الحسحاس: الرجل الذى يطرد الجوع بسخائه، بيد أنه هنا منقول سمي به ابن مالك بن عدى بن النجار، وهو خزرجى من قبيلة (حسان) تعفيها: تمحوها والتعبير بالمضارع يفيد التجدد، والحدوث، والتضعيف يفيد المبالغة.

الأنيس: من يسكن إليه القلب، وتزول به الوحشة - المروج: مفردة: "مرج": وهو كل أرض واسعة ذات نبت كثير تمرح فيه الدواب وترعاه.. النعم الإبل، ويطلق أيضا على البقر والغنم والمراد هنا الشاء واحدها (شاة) وتطلق على المذكر والمؤنث من الغنم، أو منها ومن المعزى.

دع هذا: أى اتركه، ومن لطيف: استفهام قصد به التمنى. الغساء أول الظلام من الليل، والشعناء: هى إحدى من كان يشب بهن (حسان) ويروى أنها كانت بنت "كامن الأسلمى الخزاعى" وكانت زوجا "لحسان بن ثابت" رضى الله عنه - وفى رواية أنها بنت "سلام بن مشكم اليهودى" وقد أكثر (حسان) من التغزل فيها، والراجح أنها هذه لأن الأولى لم يوفق معها (حسان) فافترقا وتهاجيا.

تيمته: أسرته بقلبها، وأحاطت بأقطاره بهواها فليس لقلبه منها شفاء.

سيئة: فعلية بمعنى مفعولة. من سبأ الخمر إذا اشتراها لشربها ويروى "خبئية" بمعنى مكنونة معتقة. بيت رأس: يقول يا قوت: "اسم القريتين بالشام تعرفان بكثرة الكرم والخمر. إحدهما "بالقدس"، والثانية بمناحى "حلب"، مزاجها روى بالنصب فهو "خبر" يكون مقدما، وروى بالرفع فهو مبتدأ والجملة خبر "يكون" واسمها ضمير الشأن، على أنيائها: خبر "كأن" وبه تم التشبيه، ومنه عرف المشبه وهو "حريق" والأنياب من الأسنان أربع تقع خلف الرباعيات يمينا وشمالا من أعلى ومن أسفل، واحدها "نابش" مؤنث. وهى غير مقصودة لذاتها فى البيت، وإنما خصت بالذكر لأنها تحدد المقبل من الضم ومن المقبل يتذوق الريق، وهو المقصود بالتشبيه المقصود بالتشبيه والوصف أو طعم: عطف على "سيئة" فهو ابتداء تشبيه آخر للريق غصن: ناضر طرى ناعم: هضره. مضعّف "هضره" بمعنى أما له وحق له فى أغصانه. الجناء - اسم مصدر من "أجنى الثمر" بلزوم الفعل. بمعنى أدرك ونضج وحن قطافه. ويمكن أن يكون ممدود "الجنى" بزته "القطان مصدر: جنى الثمرة يجنيه إذا قطفه، كأنه التفاح، لاكتمال نضجه لم يتحمل أيدي قاطفيه فتكسر.

المعنى:

يحدثنا الشاعر "حسان بن ثابت" أنه حزين لما أصاب هذه الديار من دُثُورٍ وبلى، وهى ديار تربطه بها ذكريات، وإن أشد ما يؤلمه إقفارها من أهلها، وخلوها من الأنيس والجليس فقد تعاقبت عليها عوامل البلى ومحتها محوا، ومما يزيد الشاعر أسى وحنناً أن أهلها الذين خلت منهم الدار هم أهله وقربته وأن وطأة البلى عليها شديدة ومما يزيده ألماً أنها كانت أهلة بمن يأنس بهم، زاخرة بمظاهرة الخصب وأسباب العمران. ثم نرى الشاعر يترك الحديث عن الدار وينتقل انتقالاً مقتضياً إلى الغزل متمنياً من يكفيه طيف محبوبته التى أرقته، وعاد لم تكتحل عينه بنوم، وقد انقضى السامر ولاذ الناس إلى مضاجعهم، وانفرد به طيفها، فأرقه، وأصابه بالسُّهاد، فقاسى عذاب الأرق، وطول الليل - وما أشد طول الليل على العاشقين والمحبين، وبخاصة المريض الشاكى أو الحزين الباكى. فالشاعر يفرد أنه لا أمل فى برئه من حبها إنه طيف شعثاء، تلك التى استعبدته بحبها، ودلّه عقله غرامها، ولذلك كان من الأمنى الضائعة احتماؤه من خيالها، ومما يقاسى فى حبها، ويتحدث عن رضاها فهو رضا ب حسناء يشبه الخمر المتقاة والمجلوبة من أشهر البلاد صناعة لها وقد مزجت بماء يذهب مرارتها وعسل يكسبها حلاوة فى الطعم والمذاق، ثم يختتم الشاعر ذلك التشبيه الجميل الرائع وهو يشبه رضا الحسناء بالخمر فتشبيه آخر وهو طعم التفاح الناعم الطرى الناضر - وبهذا نعرف وقع ريقها لدى حسان فهو ريق يملأ نفسه نشوة وانشراحاً ويفعل به كما تفعل به الخمر بالشارب الثمل من لذة وحلاوة:

الآيات من: ٨ إلى ١٠:

الأشربات جمع: أشربه "وهى جمع: شراب: والعدول عن صيغة الجمع على جمع الجمع لإفادة التعظيم وهو دليل على مكانة الخمر وعظمتها لديه. الفداء - ما يضحي به من أجل سلامة الشئ وحفظه. نوليها الملامة - نجعلها مسئولة عما يوجه إلينا من لوم - والملامة واللوم: مصدر: لامه: بمعنى عذله وكدره بالكلام على عمل

لا يليق. أئنا: روى للفاعل لازما، ومعناه فعلنا ما يوجب اللوم، وروى مبنيا للمجهول فهو من: ألامه من أى: لامة وعتب عليه من المقت والمماغة. التضارب بالأيدى. اللحاء والملاحاة: التشائم والمنازعة باللسان.

ملوكا وأسدا. تشبيهات مبنين بها وجهها آخر من محاسن الخمر، وهو تأثيرها الطيب فى نفوس شاربها.

المعنى:

ونرى الشاعر يحجره الحديث عن ريق محبوبته الحسنة إلى وصف الخمر وما تفعله فى نفس شاربها، وهى أيضا صورة متممة للصورة السابقة، كما أن العبث يعبر عن رأى الشاعر فى الخمر فهى لديه فوق كل شراب وكل الأشربة فداها لقوة مخمرتها للعقول، فهى تفقدهم العقل، ولذلك ألقوا عليها المسئولية كاملة حين يوجه اللوم إليهم، فهى السبب فى أنهم لا يعقلون، ولا إلى كلام الناس يفتنون. وهم يشربونها فتسمو بنفوسهم، حتى ترتفع بهم إلى مستوى الملوك، عظمة وأبهة، ويبلغون بها درجة الأسود شجاعة وبسالة وهذا كله من أثر النشوة، والالتذاذ بشرها، وقوة أثرها فى نفوسهم.

الآبيات من ١١ إلى ٢١:

عد مناخيلنا: فقدناها. وهو أسلوب كئيب مقصود به لازمه وهو فقد العزة ولحوق الذل والمهانة بهم، لأن الخيل من أسباب القوة لدى العرب، ومن فقدوها فقد العزة والقوة ولحقه الذل والصغار والمهانة، وهو أسلوب خبرى حسب الظاهر، إنشائى بحسب المقصود منه وهو الدعاء على نفسه وقومه بالذل والهوان إن لم يحققوا ما يهدد به قريشا وهو الغزو، والدعاء على هذا النحو مسلك من مسالك التأكيد التى يدرسها البديعيون تحت عنوان [القسم] وقاعدته: أن يعلق المتكلم على ما يريد تأكيده من فعل أو ترك أمراً محبوباً أو مكروها بالنسبة له أو لغيره والتأكيد بهذه الطريقة أقوى من الحلف، وأوقع فى النفس وهذا واضح فى بيت حسان، فقد جعل

الضعف والذل جزاء له ولقومه إن لم ينجزوا تهديده، والطبع العربى السليم يفهم من هذا التعبير تصميم صاحبه على إنقاذ ما هدد ولو ضحى بنفسه، لأن العربى يقبل الموت، ولا يقبل الذل كل الثنية العليا من مكة، وتلك نبوءة لحسان سبقه إليها الشاعر "كعب بن مالك الأنصارى" حين قال:

فلا تعجل أبا سفيان، وارقب جياذ الخيل تطلع من كداء

ولعل ذلك كان عقيب غزوة "أحد". وقد حققها الله فكان طريق "كداء" أحد المنافذ التى دخلت منها جموع المسلمين يوم الفتح. يبارين الأسنة: يسابقن - والأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح وشباته ويروى "يبارين" و"يجاذبن" والأعنة جمع "عنان" وهو سير اللجام وعبرة "يبارين الأسنة" تصور اندفاع الخيل الغازية، وإسراعها المتزايد نحو المعركة بصورة رائعة فيها حركة متتابعة، وقد قبس حسان هذه الصورة من وضع الرماح حين يضعها الفرسان وضع الاستعداد للطعن وهم فى طرقهم إلى العدو، حيث يضجعون قوائمها على الخيل، وتكون أسنتها متقدمة أمام عيونها.

وقد أدرك حسان هذا برهافة حسّه، ودقه ملاحظته فاستغله فى توليد هذه الصورة العجيبة الرائعة، وخيل إلينا أن الخيل حين ترى الأسنة أمامها تظن أنها تسابقها، فتضاعف من سرعتها حتى لا تفوتها، ولكنها تنتقل دائما بانتقالها، فلا تلبث أن تراها، ويزداد نشاطها فهو سباق من نمط غريب عجيب وسرعة فائقة لا حد لها - الأسل: مفرد أسلة وهى الرماح، وهو فى الأصل اسم لنبات دقيق الأغصان مستقيمها طويلها وهى صفات تستحب فى الرماح، ولذلك سميتها العرب "أسلا". والظماء: العطاش، والمراد هنا الظمأ إلى الدماء. يصور تشوق الأعداء إلى لقاء الأعداء ووصف الرماح بالظمأ [بجاز] علاقته المجاورة، وفائدته إثبات أن تلهف القراءة للقاء الذى صور به بصورة العطش قد تجاوز الحد، وفاض حتى أعدى الرماح.

تظل: تستمر: متطمرات: مسرعات. تلطمهن - أصله "ضرب الوجه بالكف وهي مفتوحة، والمراد هنا مطلق ضرب الوجه، وتضعيف الفعل يفيد المبالغة، كما أن تلطيم النساء وجه الخيل يشعر بانهايار مقاومة الرجال واضطرارها للدفاع، وفي الوقت نفسه تصوير لجزعهن من ضراوة الغزو، حيث يخرجن حاسرات الرؤوس يلطمن الخيل تجمرهن، وهي لا ريب سلاح مغلول، ومحاولات يائسة، ونرى في تلطمهن (وهو مضعف للمبالغة) مأخوذ من طله الحيزة إذا حز بها بيده وسواها. فيكون بذلك معناه (الضربان) وليس المسح على وجوه الخيل، لأن مسح وجوه الخيل يكون تلطفاً، وهنا لا تلطف بل هلع وفرع وجزع، والحزن من هول ما رأيين. من عنف الغزو، وضراوة الاقتحام. والنساء هنا نساء المشركين، وروى أن رسول الله - ﷺ - رأى نساء هذا اليوم المشهود يلطمن خيول المسلمين بخمرهن فتذكر ما قاله (حسان) فسأل عنها أبا بكر وقال: أنشد بعض أبيات (حسان) يريد: عدمننا خيلنا...

إما وهي من إن الشرطية مدغمة في (ما) الفتح: يقصد به دخول مكة بالسلم تحقيقاً لما وعد الله به نبيه من أنه سيدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين محلقي رءوسهم، ومقصرين، وليس مقصوداً به الفتح الذي تحقق، وهذا يتضح لنا من المقابلة بينه وبين الجلال، وفي البيت الذي يليه. انكشف الغطاء: انجلى الغموض، وتحقق وعد الله بدخولنا مكة.

إلاً: هي: إن الشرطية ادمغت في (لا)، والمعنى: وإن لم تعرضوا عنا... الجلال. التضارب بالسيف، يعز: يجعله عزيزاً لا يغلب ولا يقهر، ويروى يعون الله: أى يمدّه بعونه.

(وحسان) - رضى الله عنه - أبهم المفعول ليحتمل المعنيين، وأن يفسر بتفسيرين: يفسر للمسلمين ويفسر للمشركين، وذلك ليوهم أن تعيين المقصود من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى تخصيص، لأنه من الأمور المعروفة أن الغلبة والنصر للمسلمين. وهذا شأن كل واثق من نفسه حينما يتحدى خصمه، ومثل هذا

الأسلوب أوقع في النفس، وأقوى في إثبات ما يتغياه الإنسان من التصريح، ومع هذا فالآيات التالية تذكر من صفات المسلمين ما يؤكد أن المسلمين هم المنتصرون بعزة الله. ففيهم روح القدس، وهم المؤمنون به وبرسوله - عليه الصلاة والسلام - وفيهم الأنصار جند الله الذين أعلوا كلمته.

فما لا ريب فيه أن الغلبة والنصر لهؤلاء الأجناد، ولا يمكن أن تكون لأحد سواهم.

روح القدس: ما به حياة من الإنسان، وهى الكامنة في الجسد. "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً".

والروح: جبريل عليه السلام - "نزل به الروح الأمين". و"تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر". والروح "عيسى عليه السلام" وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروح منه، و"فنفخنا فيه من روحنا" الروح: القرآن "وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء"، والروح: النصر والغيث من الله عز وجل.

ويطلق تجوزاً على ما ترتفع به قيمة الشيء، أو أن يكون شيئاً في ظهور أمره القدس: الطهر، كفاء: نظير وعديل، والمراد بالعبد: محمد عليه الصلاة والسلام، إن تقع البلاء: هذا شرط وجوابه محذوف يفهم من سياق الكلام والتصوير إن نفعكم الاختيار. عرفتم أنه يقول الحق: "شهدت به وقومى صدقوه" بإضافة قوم إلى ياء المتكلم، وهو بذلك يكون من كلام (حسان) يقرر أنه وقومه آمنوا به وصدقوه على حين كفرتم به وحاربتموه، ويروى (شهدت به فقوموا صدقوه) بصيغة الأمر في الحاليين، وهذا احتمال أن يكون أيضاً من كلام (حسان)، يسر: هيات. ويروى (سيرت) أى جعلته (يسكرون) الأنصار: الأعوان، فيكون بذلك وصفاً قد أطلق على أهل المدينة من الأوس والخزرج الذين آووا الرسول عليه الصلاة والسلام، ونصروه هو وأصحابه رضى الله عنهم فيغلب ذلك الوصف عليهم حتى صار اسماً لهم، ولذلك ينسب إليه على صيغته دون الرجوع إلى المفرد فيقال "أنصارى" وقد

أشار (حسان) إلى السر في هذه التسمية سماهم الله الأنصار، لنصرهم دين الهدى، وعوان الحرب تستعر^(١). العرضة: الهمة والعزم القوى أو الهدف والغرض من قولهم "فلان عرضة لهذا الأمر": أى قوى عليه. (مَعَدّ): هو الجد الأعلى لقريش إليه ينتسب أكثر عرب الشمال، وليس المقصود منه "الرجل" وإنما المقصود: المنتمون إليه وهم كل القبائل العدنانية - السباب: الشتائم والتراشق بقوارص الكلمة. والهجاء: تعداد المعاييب والمثالب. وهو غالب على ما يكون شعراً. نحكم من هجانا وهو مقيوس من (أحكم الفرس) إذا ألبسه الحكمة، وهى الحديدية التى تحيط بفكيه من اللجام وإرادة الكل - تحتلط الدماء: كناية عن احتدام المعركة وكثرة القتلى، وهو كناية عن بسالة وشجاعة الأنصار.

المعنى:

يدعو الشاعر على خيل المسلمين بالفناء، وعلى المسلمين بأن يلحقهم الشنار، والذل والعار! إن لم تتأهب الخيل لهذا اليوم الحاسم وتثير النقع الذى ينبعث من سناكبها. حتى يكون ظلا فوق رءوس المقاتلين متسابقة فى الدخول إلى مكة المكرمة - كما أنه يدعو على الفرسان بأن يلحقهم الذل إن لم يغزوهم غزواً مروعاً من فوق صهوات الخيل داخلين مكة من كداء، ويومذاك ستندفع إليكم خيولنا فى سرعة متزايدة فائقة يعتلى صهواتها فرسان مغاوير. كلما رأت الأسنة تزايد اندفاعها واستمر انطلاقتها متبارية مع الأسنة متتابعة فى الدخول إلى مكة من كداء، حتى إذا وصلت إلى غايتها وحقت رغبتها، لم تجد من ينبرى لها إلا النساء اللاتى خرجن حاسرات الرؤوس يلطمن الخيل بخمرهن وتلك حالة يائسة عاجزة، وسلاح خائر مغلول ونحن قادمون إلى مكة،. فإن نأيتم عنا وابتعدتم عن طريقنا، دخلناها سالمين مؤدين العمرة. تحقيقاً لوعده الله بفتح مكة ونصرة نبيه عليه الصلاة والسلام، وبذلك يكفى الله الفريقين شر القتال.

(١) الديوان ص ١١٢ من قصيدة بعنوان "خير مؤتمن". ط. دار صادر بيروت بلبنان بدون تاريخ.

فإن تعرضتم لنا، وأعددتهم العدة لقتالنا، ونهضتم لحربنا ولقائنا، عناداً أو غطرسة، فلا طريق إلا الدم المراق. تمهلوا ليوم اللقاء والانتقام يوم يمنح الله عز وجل عزته ونصرته لمن يشاء، وقد منحهم عز وجل أسباب النصر، وهى:

أن الله عز وجل معهم يمدهم بتأييده، وروح القدس معهم، يقاتل في صفوفهم، فهو أمين الله ولا عديل له بين صفوفكم، ومن مقومات النصر أيضاً الإيمان والعقيدة الراسخة في نفوس المؤمنين المقاتلين، ومما لا ريب فيه أن القتال العقدي يقوى الروح، ويثبت المؤمن لأنه ينافح عن الحق المؤمن به. فيزيده استبسلاً وشجاعة في الدفاع عنه، والتضحية في سبيله بكل غال مرتخص، وإن القوة المقاتلة، هم الأنصار جند الله سبحانه أعدهم لنصرة دينه وإعلاء كلمته، وهم المتمرسون بفنون المعارك فقد سبروا أغوارها، وخبروا أسرارها. عقيدتهم ثابتة، وإيمانهم راسخ وهم من أصحاب الهمم العوالى هدفهم منازل الأقران، وهمتهم العالية قمية بذلك، وخليقة بأن يكونوا أقوىاء على المجابهة والمواجهة. ثم يومئ (حسان) إلى العداوة المتوارثة من قديم الزمان بين "العدنانيين" ومنهم قريش (والقحطانيين) ومنهم (الأنصار) ويعرب عما لهذه العداوة من مظاهر ثابتة يتجلى في الصراع الدائم بين الفريقين في كل ميدان من ميادين البيان والحرب، وهنا يضيف (حسان) سببا آخر وميزة من ميزات التفوق السابقة على الأعداء وهى أنهم يخوضون المعارك مع القرشيين ونفوسهم مفعمة بالضغائن القديمة والرواسب الماضية، وذلك من دواعى استعار الحرب، وضراوة القتال وشراسة المعارك وعنف الانتقام، وذلك يوم اللقاء.

والأنصار هم جند الله عز وجل يلقون محاربيهم ببسالة قاهرة، وشجاعة نادرة، كما أنهم يقابلون هاجيهم بهجاء يؤذيه وألفاظ تشد به، وأساليب تجعله يكف عن الهجاء، ويمتنع عن السباب والشتائم وهم بذلك يملكون أزيمة البيان، ويأخذون بتلايب البلاغة، كما أنهم يملكون شجاعة القتال والبسالة لدى لقاء الأعداء يوم أن تختلط الدماء.

اللغة:

ألا: أداة استفتاح، يؤتى بها للتنبيه على أهمية ما بعدها. أبلغ: أمر بالتبليغ لا يتجه الخطاب فيه إلى معين بل يتجه إلى كل من يستطيع التبليغ إلى أبى سفيان، وهو ابن عم النبى - عليه الصلاة والسلام - وكان عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين ونبى الإسلام - عليه الصلاة والسلام - وقد أراد (حسان) - رضى الله عنه - بذلك الأسلوب أن يستفتح على أبى سفيان.

المغلغلة: الرسالة تحمل من بلد إلى بلد فى سرعة فائقة. تقول: غلغل الرجل إذا أسرع فى سيره، وغلغل رسالة إلى غيره: يعنى بعثها محمولة من بلد إلى بلد آخر. برح الخفاء: انجلى الغموض. فهو بهذه الرسالة سيكشف أمره للناس ويروى. (فأنت مجوف نخب هواء) خطاب لأبى سفيان على طريقة "الالتفات" المجوف: الجبان اسم مفعول من (جوفه) إذا نزع ما فى جوفه، ومنه (القلب) فإذا نزع قلبه انتزع محل الشجاعة منه، وكذلك الأجوف (المجوف) مثل (معول) من: اسم للمفعول: إذا استعمل فى مثل هذا الموطن. النخب والمجوف والهواء: المعنى واحد وهو الجبان، والنخب أصله نخب الصيد إذا نزع قلبه وهو بزنته.

(كتف) العبد - القن: الرقيق، وهذا المعنى ليس بمقصود هنا وإنما المقصود لازم هذا المعنى، وهو الذل والهوان. عبد الدار: بطن من قريش وقد كانت لهؤلاء القوم فى الجاهلية وظائف اجتماعية معروفة لدى العرب من هذه الوظائف (اللواء)، (الإماء) النساء. يومئ الشاعر بسيادة النساء لبنى عبد الدار، وذلك حينما صرعوا واحداً إثر واحد فى "وقعة أحد" حتى سقط اللواء من يد آخرهم فأنفذته (عمرة بنت علقمة الحارثية) فرفعته، واجتمعت عليه قريش بعد تفرقها، وبذلك كانت لها القيادة، الجزاء: الأجر والمكافأة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ومن استعماله فى المكافأة على الشر بمثله قوله سبحانه "وجزاء سيئة سيئة مثلها" أتهجوه: استفهام إنكارى توبيخى، الفداء: ما يضحى به لدفع الأذى. والغرض من الشطر الأخير

الدعاء بأن يذهب شر الرجلين ضحية وفداء لخيرهما، وإن كان (حسان) يعلن أن خير الرجلين محمد - عليه الصلاة والسلام - ولكن جرى أسلوب "تجاهل العارف" وترك للخصم الفرصة ليتدبر الأمر حتى يصل إلى الحقيقة بنفسه فذلك أدعى لإذعانه واقتناعه ورجوعه عن غيه وعناده، مباركاً: متلبساً بالخير الإلهي، برأ: كثير البر وفعل الخير حنيفاً: مائلاً عن الضلال والغواية إلى الاستقامة والهداية. أمن يهجو استفهام توبيخى كذلك موجه إلى قريش - منكم: متعلق (بحال) صاحبها - رسول الله - ﷺ - ولا يحسن تعليقه بالفعل "يهجو" وذلك من تعليق مثله بالفعل "يمدح"، لأنه نظيره، وذلك غير جائز، حيث لم يكن في القرشيّين حينذاك من يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام وفي جعله (حلاً) ملحظ دقيق يبين وجه توبيخه لقريش فهو يسفهم على أن يتساوى لديهم من يهجو محمداً ومن يمدحه، مع أن محمداً منهم، فنصره من نصرهم وشرفه برسالة الله تعالى شرف لهم فما كان ينبغي أن يسووا بين خاذليه وناصره.

العرض: موضع المدح والذم من المرء، أو هو كل ما يجب على المرء حمايته من جميع ما يتصل بنفسه، أو شيعته. وقاء: حفظ من شرورهم. تثقفن: مضارع "تقفه" وهو من باب "علم" بمعنى صادفه ووجده، ولؤى أحد أجداد النبي - عليه الصلاة والسلام - وإليه ينتسب القرشيّون وهم المقصودون من بنى لؤى، جذيمة: هو حى من خزاعة ناصبوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - العداء فغزاهم في السنة الخامسة من الهجرة وجواب الشرط محذوف تقديره فليقبلوا بهم أو فليعلموا أن مصيرهم من مصيره، ودليله (إن قتلهم شفاء).

الحلف: يطلق على العهد والصداقة بين اثنين أو أكثر، ويطلق أيضاً على جماعة المتعاهدين، والمتصادقين وهو المقصود هنا - الحارث بن أبى ضرار: هو أبو أم المؤمنين (جويرة) زوج الرسول - عليه الصلاة والسلام - رضى الله عنها - كان قبل إسلامه رأس جذيمة في مناوأة المسلمين وحلفه هم من تحالفوا معه على حرب الرسول - عليه الصلاة والسلام. قريظة: حى من اليهود كانوا بالمدينة عادوا النبي - عليه الصلاة والسلام - فغزاهم سنة خمس من الهجرة، وحاصرهم خمساً

وعشرين ليلة حتى ضجروا وارتضوا حكم حكومة (سعد بن معاذ) في الصلح
فقضى أن يقتل رجالهم وأن تسبى ذراريهم ونسأؤهم، وأن تقسم أموالهم، صارم:
قاطع. يشبه لسانه بالسيف البتار في قوة تأثيره وشدة إيلامه لمن يتناوله. تكدّره أن
تثير الكدر فيه، الدلاء: جمع دلو وهو ما يستقى من الماء استعار البحر لشاعريته،
وأثبت له العمق في السعة عن طريق الكناية في قوله لا تكدّره الدلاء، لأن الدلاء
تعجز عن إثارة الكدر فيه إلا إذا كان الماء.

بعيد الغور: واسع المضطرب:

المعنى:

وهنا ترى الشاعر الإسلامي - (حسان بن ثابت) الأنصاري - رضى الله عنه -
يستهل غرضاً جديداً، ألا وهو هجاء أبى سفيان بن الحارث، فيقرر أن حقيقته قد
انجلت، وسريته قد اتضحت، وأنه في سبيل إعلانها للناس يطلب إلى كل أن
يأخذها عنه، ويواجه بها أبا سفيان بن الحارث دون مداراة أو مواربة. فقد باتت
الأمر جليلة واضحة، وهذه الرسالة تحمل بين طياتها تحقيراً لأبى سفيان، وتوبيخاً
له حيث فرّ من الميدان في غزوة بدر الكبرى، وما لحقه من ذل وشنار، وتحقير وعار
لفراره من الميدان وخيانة القوم الذين ينتمى إليهم، وكان يقاتل بين صفوفهم حتى
تولى قيادتهم نسأؤهم، والشاعر يومئ إلى أن التى رفعت اللواء بعد خور مقاتليهم
(عمرة بنت علقمة الحارثية) فاجتمعت قريش بعد تفرقها، وبذلك كانت القيادة لها،
وأما أنت يا أبا سفيان فقد انقطع رجاؤك، وضاع أملك، وخارت قواك، وتبددت
أمانيك، وتبخرت أحلامك، حيث إنك لم تفعل شيئاً يوم التقى الجمعان حيث
فررت من الميدان وكذلك لم تفعل شيئاً في ميدان الهجاء. فقد هجوت محمداً - عليه
الصلاة والسلام - فانبريت لك بلسانى الصارم البتار مدافعاً عن رسول الله - ﷺ -
وعن عرضه، وجزائى وجزاؤك عند الله سبحانه وتعالى الذى يجزى بالسوء سوءاً،
وبالإحسان إحساناً، "وجزاء سيئة سيئة مثلها"، "هل جزاء الإحسان إلا
الإحسان" ومما لا ريب أن (حسان بن ثابت) محسن ينافح عن رسول الله - عليه

الصلاة والسلام - وأن أبا سفيان مسيء يهجو له، ثم يطعن أبا سفيان في شاعريته بأنه لم يصنع شيئاً في ميدان الهجاء. فقد هجوت محمداً - عليه الصلاة والسلام - فدافعت عنه وأبطلت هجاءك. وباء هجاؤك بالفشل الذريع، فلقد خضت ميدانا لست من فرسانه، وتناولت بهجوك إلى مقام سام، تنقطع دونه أنفاسك. فلم تنل من صاحبك ذى المقام الرفيع - محمد - عليه الصلاة والسلام، واستحق أن يكون الفداء لصاحب هذا المقام.

فلقد كنت مغروراً حين حسبت أنك ستنال بهجائك من الرسول الكريم الذى حوى الفضائل كلها من بركة وأمانة، ونبل وبر، واستقامة ووفاء.

ثم نرى الشاعر. قد وبخهم، وسخر منهم، وسفه أحلامهم. كيف يتساوى من يهجو محمداً - عليه الصلاة والسلام - ومن يمتدحه ليسوا سواء، مع أن محمد منهم فنصره انتصار لهم، وشرفه برسالة الله واصطفائه سبحانه وتعالى له شرف لهم فما كان ينبغي التسوية بين خاذليه وناصره فضلاً عن احتقارهم لهؤلاء المهاجرين، وإذا رضيتم لأنفسكم هذا الشعر فى حق رسول الله ﷺ فقد انتحيت منحنى آخر، وفهمت سبيلاً غير سبيلك وهو حمايته من شروركم بأبى وجدى وعرضى، وسأواجه شروركم، وأتلقى طغيانكم فداء لرسول الله ﷺ ثم يهدد قريشا بسوء المصير إن هم ظلوا فى غوايتهم، واستمروا فى عنادهم، ومكابرتهم، ويذكرهم بمصارع من أوقع الرسول - عليه الصلاة والسلام - بهم من أعدائه، ويحذرهم أن يكون مصيرهم كمصيرهم، فإن لقيتم جذيمة فستعرفوا من حالهم الدليل شر نهايتكم، وسوء عاقبتكم، حيث انتقمنا منهم شر انتقام، وشفينا بإهلاكهم الصدور.

فالشاعر يجلى ضراوة انتقامهم من (جذيمة) ذاكراً الأسباب فهم أعانوا أعداءنا، وتحدوا جموعنا، وناصبونا العدا، وأصروا فى عناد على حربنا، وقتالنا، ويمالئون عدونا. فما كان منا إلا أن بطشنا بهم بطشة الأسود، ونشبنا أظفارنا فى رقابهم حتى امتلأت بالدماء، وها هو ذا حلف الحارث بن ضرار رأس جذيمة - فى مناوأة،

وحلف قريظة من اليهود ماثلاً أمام عيونكم يصوران بها وصلاً إليه من الدمار نهاية لكل ظالم باغ، ويمضى كل معتد أثيم و(حسان بن ثابت) يَتَغَيًّا من وراء ذلك تهديدهم، ووعيدهم ثم يهددهم تارة أخرى بالهجاء المؤلم الموجه الذى يشبه ضربات الأسياف، وهذا الهجاء ممتدّ ماله من نفاد، فهو يمتح من ركائز شعائرية أصيلة، ومملكة غزيرة، فهى كالبحر المديد الواسع العميق لا يؤثر فى مائه، ولا يثر أكداره نزح الدلاء، وهذا دليل على شاعريته الثرية، وخياله الرحيب وإحساسه المرهف، وعقيدته الراسخة، وحبه لرسول الله (ﷺ).

بين يدي القصيدة

لا يرتاب أحد من الرواة في أن القصيدة للشاعر "حسان بن ثابت" - رضى الله عنه - وهى اثنان وثلاثون بيتا، كما وردت في ديوانه.. كما أنه أوردتها كذلك كل كتاب تعرض لها بالرواية أو الشرح والتحليل. وقد دار خلاف حول هذه القصيدة من حيث إنشائها في وقت واحد، ولمناسبة واحدة، والصواب أن ذلك غير صحيح، وأن صدر هذه القصيدة يختلف في مناسبه وزمانه عن بقيتها، وأن أبياتها العشرة الأولى هى من الشعر الذى أنشده (حسان بن ثابت) في الجاهلية، ونحن نميل إلى هذا الرأى، بل نؤيده ونسوق على صدق ما ذهبنا إليه من الأدلة والبراهين الساطعة ما يجعل القارئ يؤيدنا فيما ذهبنا إليه، ويرى ما ارتأيناه فإن الأبيات العشرة الأولى تضمنت من الألفاظ والمعانى ما لا يتفق مع سيرة "حسان بن ثابت" وما عرف عنه بعد انخراطه في الإسلام، كما أنها لا تتناسب والوقت الذى قيلت فيه، ونعنى بذلك المعانى التى تمجد الخمر وتعظمها، وتغرى بشربها، وذلك من مثل قوله:

إذا ما الأشربات ذكرن يوماً	فهن لطيب الراح الفداء
نوليها الملامة إن ألمانا	إذا ما كان مغث أو لحاء
ونشربها فتركنا ملوكاً	وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

فغير معقول أن يصف "حسان بن ثابت" الخمر ويمجدها ويغرى بشربها غيره بعد إسلامه، وبعد انقطاعه عن معاقبتها، وشربها ومجالسها تؤكد ذلك سيرته الذاتية - كما أنه ليس معقولاً أن نعد ذلك الوصف من قبيل الصناعة الشعرية، وأنه جرى

فى ذلك على عادة الشعراء، أو أنه قول غير مصحوب بعقيدة، فالإسلام الذى حرم الخمر، وعدّها رجساً من الأرجاس، وشرّبها كبيرة من الكبائر، لا يبيح لشاعر أن يحرّض الناس على شرّبها بمثل ما وصفها به فى أبياتها آنفة الذكر، وإن كان الواصف لها "حسان" وقد ذكر الرواة أن حسان بن ثابت - رضى الله عنه - مرّ بفتية من أهل المدينة، فوجدهم يشربون الخمر، فنهاهم عن شرّبها، فاعتذروا إليه بدعابة ومرح عليه مسحة من روح الشباب وعبثه المعهود، وقالوا له: كلما هممنا بتركها أغرانا بشرّبها قول:

ونشرّبها فتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنّنا اللقاء

وهم بهذا يلوحون إليه أن اترك هذا النصّح لغيرك من الذين لا يعرفون شرّبها، ولم يذوقوا طعمها، فأقسم لهم أنه ما شرب الخمر منذ دخل الإسلام.

مما تقدّم يستبين لنا بجلاء ووضوح تامّين أن الأبيات العشرة التى استهل بها حسان القصيدة جاهلية فأسلوبها وصبغتها ومعانيها لا تتواءم وسيرة الصحابى الجليل - رضى الله عنه - كما أن الحياة الإسلامية يومذاك لا تتقبل مثل هذه المعانى، حيث إن المجتمع الإسلامى يومئذ يموّج بالروحانية العالية، والشفافية التامة، وخاصة فى ذلك الوقت الذى أنشد فيه حسان هذه القصيدة. ومن النظرة الفاحصة للأبيات والوقت الذى قيلت فيه، والمناسبة التى أنشد لها حسان هذه الأبيات من اليسير الهين أن نسبر أغوارها، ونقف على أسرارها، ونحدد الزمن الذى قيلت فيه الأبيات العشرة. فمن روح الأبيات ومعانيها يشيع فيها جو الأسى، ويغطيها الحزن، وتشملها الكآبة، وأن المناسبة التى قيلت فيها غير سارة سواء أكانت مقصودة لذاتها، أم أنها جعلت تمهيداً لغرض شعرى آخر. وهنا يظهر تساؤل وهو: ما الذى جعلها تروى فى ديوانه وفى جميع مصادر الأدب على أنها قصيدة واحدة؟!، وللدرد على هذا التساؤل نقول: يبدو أن "حسان بن ثابت" - رضى الله عنه - قبل أن يشرع فى إنشاد هذه القصيدة التى يهجو فيها أبا سفيان - قبل إسلامه - ويمدح

رسول الله ﷺ ويشره بفتح مكة من كداء ويمدح الأنصار والمهاجرين، ويجعل عرضه فداء ووقاء لعرض رسول الله - عليه السلام - أخذ يترنم بهذه الأبيات الجاهلية، ليملاً نفسه بنغمها، ويمتع نفسه بجرسها، ويستمتع بجزالة لفظها وموسيقاه انطلق بهذه الموسيقى الحاملة، والنغم الممتع فأنشد الأبيات على نفس الوزن والقافية فسمعها الرواة، فرووها على أنها قصيدة واحدة والحق أن هذه الأبيات ليست من القصيدة في شيء، وهناك احتمال آخر، وهو أن بعض الرواة سمع مجموعتي الأبيات، ووجدهما على وزن واحد وروى واحد، ويتشابهان في المستوى الفني، فضم الأبيات وجعل المجموعتين قصيدة واحدة دون تحفظ. أما بقية الأبيات فيما وراء العشرة الأولى فما لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان أنها أنشدت في الإسلام، يؤكد ذلك ما انتظمته القصيدة من معاني إسلامية، وما تضمنته من وقائع، وما بدا على الأبيات من مسحة التأثر بالأساليب القرآنية، بيد أن بعض المؤلفين قد يوقعك في اللبس لدى تحديد المناسبة التاريخية لهذه الأبيات، فقد ورد في كثرة كاثرة من الكتب أن الأبيات قيلت في فتح مكة، وهذا لون من ألوان التساؤل في التعبير، فهو تحديد غير صادق، حيث إن القصيدة لم تتحدث عن الفتح كأمر واقع، وإنما تحدثت عنه كوسيلة من وسائل التهديد والوعيد لقريش. على الرغم من ورود كلمة الفتح في بعض أبياتها، والمقصود به أمر آخر غير الفتح لمكة. حيث إن الجيش الإسلامي دخلها بعد الغزو والجلاد الذي هددهم به حسان في قوله:

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
ولا فاصبروا لجلاد يوم يعز الله فيه من يشاء

فالشاعر يعلق الجلاد على إبائهم السلم، وإصرارهم على منع المسلمين من دخول مكة لأداء العمرة، وقد كان ذلك سابقاً على يوم الفتح، والقصيدة هجاء

لأبى سفيان وتبشير بفتح مكة، وأنهم سيدخلونها من طريق كداء. ويمكن أن نستبين التحديد الدقيق لزمن القصيدة، ومناسبتها من بعض أبياتها، حيث تومئ بعض الأبيات إلى أن المشركين اعترضوا طريق المسلمين ومنعواهم الاعتمار، وكان ذلك الحدث عام الحديبية في السنة السادسة من الهجرة النبوية، حيث خرج النبي ﷺ ومعه المسلمون، وكل من رغب في صحبته من القبائل التي لم تسلم بعد، وكانوا قد خرجوا مسالين محرمين يسوقون الهدى، ليست لهم غاية سوى زيارة البيت. فإذا بكفار مكة يصدونهم محاولين منعهم من الاعتمار. فأنشد "حسان" هذه الأبيات تهديدا لقريش، وهجاء لأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

تعقيب:

هذا لون من ألوان الشعر الإسلامى يتناول غرضا من الأغراض التى تتناسب مع جلال الدعوة وعظمتها، فالمديح والهجاء، وإن كانا من التى تعرض لها الشعر الجاهلى إلا أن الإسلام شذبهما، وهذبهما وصقلهما بروحه، وغمرهما بتعاليمه السامقة، وأهدافه السامية النبيلة، فلم يعد المدح حيثنذ سبيلا للكدية والاستجداء، ولا وسيلة من وسائل الثروة والغنى، كما أن الهجاء لم يعد أداة للهدم، وسبيلا من سبل الانتقاص بدون حق.. بل كان المديح والهجاء فى المجتمع الإسلامى وسيلة وسائل توطيد الدعوة، وسلاح من الأسلحة التى ينافحون بها عن قائد هذه الدعوة - سيدنا محمد ﷺ.

والقصيدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: يتناول كل قسم منها موضوعاً خاصاً فالقسم الأول ينتظم عشرة أبيات استهل الشاعر بها القصيدة.. بكى الشاعر فيها الديار، وتغزل فى محبوبته، ووصف الخمر، وهذا الموضوعات متميزة فى حقيقتها بيد أنها متواشجة القرابة، وثلاثتها تشترك فى معنى واحد، هو أنها أمور تخص الشاعر وحده، وقد راعى الشعراء ما بينها من وشائج وأمشاج، وجرت عاداتهم على تناولها هى وما يشبهها من حديث النفس ويلائم بينها فى حديث واحد يصدرون به القصائد، ويهيئون بها جواً نفسياً مناسباً لغرضها الأصيل، وتحدث الشاعر فى أبياتها

الثلاثة الأولى عن الديار، وبثها حزنه، وأشرك غيره معه في حزنه وأسأه، وإن كان الشاعر لم يطلب من أحد هذه المشاركة، أو يستوقف غيره ويستبكيه كما فعل شعراء الجاهلية في مقدماتهم الطللية كما رأينا لدى امرئ القيس حين وقف واستوقف، وبكى واستبكى، ووصف الحبيب والمنزل، فقال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فحسان بن ثابت لم يفعل ذلك بيد أنه لمس الجوانب التي تثير كوامن الشجن لهذه الديار وأبرزها في حديثه فوضع أمام أعيننا دثورها، وخلوها من قطانها الذين هم أهلها، وأن هذه الديار وقعت تحت عوامل البلى والمحو التي تعاقبت عليها، والشاعر إذ يضع نصب أعيننا هذا الكوارث التي انتظمت الديار لم يفته أن يضع صورتها السعيدة حيث كانت بالأمس حافلة بالأنس زاخرة بالسمار، ومظاهر الخصب والعمران، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى حديث الغزل في الأربعة أبيات التالية انتقالا فيه اقتضاب. كما أننا نراه في غزله لم يطل، ولم يتخذ غرضاً يجلو فيه محاسن محبوبته، ويكشف عن مظاهر الجمال لديها، وإنما قصد أن يرينا مقدار حبه لها وما فقد به ذلك الغرام، ولذلك نراه قد اكتفى منها بطيفها، وريقها وعالجها على نحو يحقق غايته، ويشعر بعمق هذا الحب، وآثار الغرام في نفسه. أما الطيف فقد شكاه، متمنيا الحماية منه، فقد اعتاد زيارته في كل ليلة حينما ينفض السَّمار، ويخلد إلى نفسه فيستبد الطيف به ويشغل باله، ويؤرقه فلا تكتحل عينه بنوم، وبذلك يقع فريسة للسهد والوحدة ووحشة الليل. وتتمنى الحماية من طيف المحبوبة لا يرغب في أن يقطع صلته بها أو أن ينأى بقلبه عنها، لا يريد ذلك وإنما هي عادة العشاق إذا برَّح بهم الوجد وقاسوا من عذاب الهجران، حينذاك يأخذون في تجسيم آلامهم، وتمثل الطيف برهاناً على تمكن الحب من قلوبهم. رجاء أن يحل الشخص محل الخيال، وأما الريق، فيبدو أن الشاعر كان مغرماً بذوقه، حيث تعرض له كثيراً في شعره، فقد شبهه هنا بخمر منتقاة، ذهبت مرارتها بمزاج من غسل وماء وتارة أخرى بطعم تفاح ناضر ناعم طرى. تكامل نضجه، وغايته من ذلك نقل مشاعره إلى الآخرين.

بما يجده في نفسه لدى تذوق الريق. فهو يلتذ به، ويقبل عليه بنهم وشره، وسرف، وتمتلى نفسه بنشوة تنسيه ما حوله، وتبعده عن واقعه فيعيش بذلك في خيال جميل وبذلك نقف على مقدار سعادته في القرب، والصفاء، ومقدار شفائه في البعد والجفاء.

ثم يتطرق الشاعر من الغزل إلى وصف الخمر، فنراه يمجدها ويحرض عليها. ويغري بشرها، وسما بها فوق كل الأشربة لقوة مخمرتها للعقول، وشدة سلبها للوعى، وسيطرتها على تصرف شاربها حتى تغدو مسئولة عنه وعن تصرفاته، وهى تسمو بشاربها إلى جلال الملوك، وتملؤه بشجاعة الأسد، وضراوتها، وإقدامها، والأبيات مستقلة عما قبلها في الفهم، ويمكن أن يعد مضمون الأبيات قصراً مستقلاً، ولا يمكن الانتقال إليه طفرة أو اقتضاباً كما صنع في تحوله من بكاء الديار إلى الغزل، حيث إن تشبيه الريق بالخمر يلفظ هذا الانتقال، ويكفى للربط بين الموضوعين، ولكننا مع ذلك نرجح أن هذا الوصف لم يكن مقصوداً لذاته، وأن الشاعر أراد أن يستكمل به الصورة التى رسمها لريق محبوبته (شعثاء)، وأن يضيف إليها ما ذكر من محاسن الخمر وآثارها النفسية. وقد يعده بعض النقاد استطراداً، وهو في الحقيقة ليس كذلك، وإنما هو اتباع لمذهب شعري مألوف لدى القدماء، يلجأ الشاعر إليه برغبته في تدقيق الوصف لما يصفه وإبراز ما يخفى من دقائقه، فيعمد إلى تشبيهه بشئ أعرف منه. ثم يسترسل في أوصاف المشبه به، وتبيان تفاصيله لينقلها إلى المشبه، ومن الممكن أن يسلك ذلك في باب ما سماه علماء البديع "التتميم" لولا أنهم ضيقوا نطاقه، وجعلوه في حدود البيت الواحد ولولا أن بعض الشعراء قد يطل في هذا الاسترسال ويبدو حديثه عن المشبه به وكونه غرضاً أصيلاً. هذا هو القسم الأول من القصيدة وقد أومأنا آنفاً إلى أنه جاهلى، وهو في الحقيقة مبتوت الصلة ببقية أبيات القصيدة، ولا يمثل شعر (حسان) الإسلامى لما عرف عن خلقه وسيرته بعد دخوله الإسلامى، وأن هذه الأبيات التى تصدرت القصيدة من شعره الجاهلى، ولا ريب في ذلك. أما القسم الثانى من القصيدة فموضوعه تهديد قريش ويقع في أحد عشر بيتاً وقد مهد الشاعر لهذا التهديد بتأكيد لا يدع

مجالاً لربية في وقوعه، فهو يدعو على نفسه وقومه بالخور والذلة إن لم ينجزوه، وأن ذلك الغزو الذي هددهم به حسان نبأهم بأنه سيكون غزواً عنيفاً بجيش عرمرم يثير النقع بكثرة عدده، وقوة اندفاعه، وستنطلق به الخيل من طريق [كداء] وتنصب في سرعة متصاعدة، كأنها تسابق ما لا يسبق ويعنى أسنة الرماح المضجعة على أكتافها، وتلك الخيل تحمل فرساناً هم أشد ما يكونون حرصاً على اللقاء، يتحرقون شوقاً إلى الفتك بالأعداء، وكأنها فاض هذا المعنى على رماحهم فبدت متعطشة إلى الدماء، وتستمر الخيل في سرعتها، لا تصدها مقاومة ولا يقف في طريقها أحد حتى تدخل مكة فلا تجد غير نسوة ملأ قلوبهن الفزع وأحاط بهن الذعر والهلع، وانعكس ذلك على تصرفهن، حتى كشفن الرؤوس وأخذن يلطمن الخيل بالخمير. ثم يعرض الشاعر على قريش أن ينأوا بأنفسهم عن هذا الشر ويخلوا السبيل ويمكنوا رسول الله ﷺ من دخول مكة - وتأدية العمرة ليتحقق بذلك وعد الله، ويكون ذلك سلباً. فإن أبيت السلام وأخذتكم العزة والاثم فانتظروا يوم الانتقام، يوم يتحقق هذا الوعيد بمقارعة الأسياف ويوم ذاك يتحقق النصر بجند محمد عليه الصلاة والسلام - وتكون لهم الغلبة والعزة التي يكتبها الحق تبارك وتعالى لمن شاء أن يعزه، وهي بلا ريب للمسلمين. والنبى عليه السلام والمسلمون هم المنتصرون، لأنهم يستمدون العون من الله، وذلك بصحبة جبريل عليه السلام وهو أمين الله، وروح قدسه، والقوة الخارقة القاهرة التي لا نظير لها في صفوف الكافرين. وحيث إنهم أهل إيمان قوى، وعقيدة راسخة، فقد اختبر الله خلقه حين أرسل نبيه ﷺ بدعوة الحق، فنفعهم الابتلاء فصدقوه وآمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وعمرت قلوبهم باليقين، وعميت قلوب الكافرين المعاندين وبذلك أمعنوا في الغي والضلال، والعناد والمكابرة، وحيث إن الأنصار منهم وهم جند الله الذين أعدهم لإعلاء كلمته، وهم أصحاب الهمم العوالى، والعزائم القوية، والقلوب الثابتة في خوض المعارك، وهم الذين تأصلت العداوة بينهم وبين العدنانيين، وقريش منهم ومارسوا حربهم أزماناً طويلاً، وكان النصر فيها حليفهم فقد حاربوهم باللسان فأدبوهم بأشعارهم، ووجهوا ذلك لكل من تعرض لهم بالهجاء،

وحاربوهم بالسلاح فما وهنوا عن الضرب حين يخدم العراك، ويحمى وطيس المعركة، ويشتعل أوارها، وتختلط الدماء.

تلك هى الأفكار التى انتظمها القسم الثانى من قصيدة الشاعر "حسان بن ثابت" رضى الله عنه، وقد سلكها فى ثلاث حلقات هى:

أولاً: تصور العمل الانتقامى الذى يهدد قريشا به.

ثانياً: تعرض حلاً للموقف، إن رضىه المشركون؛ كفوا أنفسهم شر الانتقام.

ثالثاً: توضح وسائل القوة التى تكفل إنجاز هذا العمل، وتضمن النصر للجيش الإسلامى.

وقد راعى الشاعر فى ترتيب هذه الحلقات، وترتيب أفكارها والتركيز على بعضها دون بعض، مقتضيات الموقف، وما يكتنفه من ملاسبات.. فالبدء بحديث الانتقام، وتأكيد به يبنى عن العزم والتصميم والتصوير بهذه الصورة الرهيبة المرعبة التى تنخلع لها القلوب، وهذه الأمور اقتضتها الثورة النفسية للشاعر، فقد كان حسان يومذاك مشحون النفس بالغضب والغضب، وطبيعة الإنسان فى مثل هذه الأحوال تدفعه إلى محاولة التنفيس من ثورته والتماس ما يخفف عن نفسه بأى لون من الألوان، فإن لم يستطع ذلك بعمل ينهض به فلا أقل من أن يكون بالكلمة المعبرة عن خوالج النفس، وخواطر الذهن وذلك ما فعله الشاعر، حيث استجاب لفطرته حينما جعل صدارة الأبيات لحديث الانتقام وأعطاه الصورة المرعبة المهولة المروعة ليكافئ بذلك ما يختلج فى نفسه من ثورة عارمة، وغضبة ضارية. وقد كان ميزان القوة بين الفريقين غير متكافئ، فزمام المبادرة فى يد المشركين وهم مستعدون لحرب خاطفة، والمسلمون تكتنفهم دهشة المفاجأة وهم عزل من كل سلاح عدا سلاح الإيمان الذى يغمر قلوبهم والعقيدة الراسخة التى تثبت أقدامهم، فكان على الشاعر حينذاك أن يبادر بما ينهض بعزائم المسلمين ويشد من أزهرهم ويعوض مشاعرهم مما تحس به من نقص فى ميزان القوة المادية، محاولاً إرهاب المشركين

وذلك بتهديده لهم. والحل الذى عرضه الشاعر لإنهاء الخلاف لم يأخذ من جهده غير بيت واحد، وكان بمقدوره أن يطيل بذكر ما يعرف من مزايا السلام، ولكن الشاعر لم يفعل فهو فى الحقيقة يريد استسلام قريش تحت رعدة من التهديد، ولذلك مر الشاعر بهذا الغرض مرَّ الكرام، وعاد إلى ما كان فيه من تهديد ليبين الأسباب والقوى التى يعتمد عليها المسلمون فى إنجاز ما وعدوهم به من نصر مؤزر مبین عليهم، وتلك القوى التى عرضها حسان تنتظم أمرين:

الأمر الأول: القوة الروحية، المتمثلة فى عزة الله وجلاله، وصحبة جبريل عليه السلام للمسلمين، ثم الإيمان الذى يعمر قلوبهم، وتمتلى به أفئدتهم.

الأمر الثانى: القوة المادية، التى قوامها الأنصار الذين هم صُبرٌ فى الحرب صُدُقٌ عند اللقاء.

ونرى الشاعر يقدم القوة الروحية على القوة المادية ليدخل بذلك الطمأنينة فى قلوب المسلمين، ويذكرهم بهذه الإمدادات الروحية التى تصحبهم فى كل موقع، وتكفل النصر لهم مع قلة العدد والعُدة، وبها يتحقق لهم النصر على الجموع المحتشدة والتى تفوقهم عددا وعتادا من المشركين، ويوحى فى الوقت نفسه بأن القوة المادية أمر ثانوى، لا أثر له إلا بوجود القوة الروحية، ومع ذلك فإن الشاعر لم يقصر فى تفخيم القوة المادية للمسلمين، فقد ذكر من أوصاف الأنصار ما يجعل لهذه القوة وزناً راجحاً لدى الكافرين.

والقسم الثالث من القصيدة يضم بقيتها، والأبيات وموضوعها يختلفان باختلاف الروايات، فهى على رواية (ابن هشام) ثنائية أبيات فى هجاء أبى سفيان بن الحارث، وتقريع قريش على احتضانها له ولأمثاله ممن يهجون محمداً ﷺ. وفى رواية ديوان الشاعر أحد عشر بيتاً، تضم إلى ما سبق تهديداً جديداً لقريش بزيادة ثلاثة أبيات قبل الأخير، وقد استهل الهجاء بخطاب عام وجهه إلى كل من يستطيع التبليغ ليحمل عنه رسالة بما تكشف من حقيقة أبى سفيان، وينتقل بها من مكان إلى آخر حتى يصل إلى ذلك الهجاء فيواجهه بأن أسياف المسلمين قد دمغته بعار الجين

والذلة حين فرّ منها في وقعة بدر الكبرى، وأنها كشفت خور وجبن عصابته من المشركين بما نالت من أبطالها في معركة "أحد" حيث سقط اللواء، إلى أن حمته النساء. وأنت يا أبا سفيان لم تنل من هجوك لمحمد عليه السلام ما أردت، فقد انبريت لك، وأبطلت هجاءك، وحسابي وحسابك عند الله، وما كان ينبغي أن تنتظر نجاحا في هذا الهجاء، فقد كان ذلك حمقا وجهلا منك حيث اقتحمت ميدانا لست من فرسانه، وهجوت من لا توزن به قدرا وشرفا، وعظمة واحتراما، ومهابة وإجلالا، فهو يسمو عليك سمو الخير على الشر، فلتذهب نفسك الشريفة فداءً وثمنا لدفع السوء عن محمد ﷺ، وما كان ينبغي لك أن تخدعك حماقتك، وتتهم أنك ستنال من عظمة محمد عليه السلام المشمول ببركة الله، كثير البر والخير، مائل عن الغواية والضلال، إلى الاستقامة والهداية، فهو أمين على رسالة ربه، مجبول على الوفاء. ثم يتجه الشاعر إلى تقرير قريش قائلا لهم: إنكم ملومون على سفاهتكم، فما كان يليق بكم أن تسووا هاجي محمد وخاذله، بإدحه وناصره، مع أنه منكم، وشرفه شرفكم وفخره فخر لكم، فإنكم حمقى وسفهاء. إن كان هذا هو موقفكم منه عليه السلام، فقد جعلت نفسى درعا بينه وبينكم، وجعلت أبى ووالده، وعرضى لعرض محمد منكم وقاء. وإنى لقمين بتأديب سفهائكم، حيث لسانى قارص الهجاء، يشبه في إيلامه تمزيق من يناله سيف بتار، وشاعريتى غير محدودة الطاقة، فهي كالبحر البعيد الغور، الذى لا ينفد ماؤه، ولا يكدره نرح الدلاء.

ذلك ما تضمنه القسم الأخير من القصيدة كما رواه ابن هشام وقد تصرف فيه الشاعر تصرفا بارعا، حيث بدأ بإعلان الحرب على أبى سفيان موسعا دائرة التشهير به، لينشر مخاذه ويذيعها على كل لسان، وحتى تسير بها الركبان، وهو تمهيد مناسب، فيه مرارة، وقسوة تؤلم أبا سفيان، ويفتق الأذهان إلى ما يأتى من تفاصيل هجوه، وفي ذلك الأمر تجلت براعة الشاعر، حيث اكتفى حسان بذكر جوانب معينة من شخصية أبى سفيان، مع تسليط الأضواء على ما فيها من عوار، وأنه لم يختلق ولم يسرف فيما عرض له من عورات، وقد اقتصر الشاعر على هذه الجوانب دون غيرها، لأنه أمام هدف معين، وحقه أن يختار من المعانى ما يناسب هذا الهدف ويوصل إليه، وهو لا يهجو أبا سفيان بوصفه شخصا عاديا، بل إنه يهجو في شخصية

المعادى لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - فواجهه أن ينظر في الصفات التي تؤلف عناصر هذه الشخصية، فإذا استطاع أن يبطلها فقد هدم هذه الشخصية وحطمها، وهذا ما فعله حسان بن ثابت - رضى الله عنه - فقد كان لأبى سفيان في عداوة محمد عليه السلام صفتان: فهو مقاتل لا تفوته معركة في حرب محمد بالسلاح، وهو شاعر لا يكف لسانه عن نباح النبی والمسلمين، ولهذا اكتفى حسان بهاتين الصفتين وأنفذ فيهما طعناته حتى قضى عليه بصفته محارباً في بيت واحد، واستغل فيه حقيقة لا يستطيع إنكارها، وهى الجبن الذى ألصق به ذلة، وأى خسيصة تهدم المحارب غير ما يسجل عليه من خزى الجبن وعار الفرار؟! ثم قضى عليه شاعراً بحقيقة أخرى أخذها حسان من الواقع وهى عجز أبى سفيان عن أن يؤثر في مقام محمد بهجائه، ثم وضع الشاعر هذه الحقيقة معللاً السر في فشل أبى سفيان وعجزه في النيل من مقامه عليه السلام محاولة أبى سفيان مالا طاقة له به، فهو في الحضيض، وأنى له أن يمسّ السماء السامية، وكيف يؤثر بهجائه وغثاء كلامه فيمن تجمعت له كل أسباب العظمة، وتأنب قريش ليس غريباً عن هجاء أبى سفيان، لأنه يهجو على عمل يعد سكوتهم عليه سفها يستحق اللوم والتقريع، فهو مبنى عليه ومكمل له والانتقال بينهما لا بعد فيه، بل لعل الشاعر يقصد من توبيخ قريش أن يدبر وقية لأبى سفيان ويؤلب عليه قومه. فهو يذكرهم بأن محمداً منهم، ونجاحه نجاحهم، وفخره فخرهم، وانتصاره انتصارهم، ثم يقرعهم على احتضان أعدائه، وتخليهم عنه. ونرى الشاعر لا يكتفى بالتقريع والتنديد في تأديب قريش على موقفهم آنف الذكر، ولذلك نراه يهددهم بأنه مصمم على الدفاع عن محمد، والانتقام منهم، مبيناً سلاحه الذى سيخوض به المعركة ضدهم، وهو الهجاء الذى يمزق الأعصاب، ويقضى على الشرف، ثم شاعريته التى لا يلحقها وهن، ولا يعتريها الفتور.

أما الأبيات الثلاثة التى زادت رواية الديوان، وهى من البيت التاسع والعشرين إلى البيت الواحد والثلاثين، فإنها تضيف التهديد بالسلاح قبل التهديد والهجاء، حيث يقول فيها:

إن لقيت قريش بنى جذيمة عرفت منهم مصائر أعدائنا، فما شفى غيظ قلوبنا منهم، إلا سفكنا لدمائهم، لأنهم جرؤا على مناوأتنا، فبطشنا بهم بطش الأسد، وبذلك تخلصنا منهم، ومن التف حولهم، وكذلك تخلصنا من جموع قريظة واشتفينا منهم، وتهديد الشاعر لهم بهذه الآيات لا يعد مكرورا مع تهديد بالفتح، فهو هناك يتوعدهم بغزو مكة لأنهم يمنعون النبي وصحابته من دخولها، وهنا يتهددهم بالانتقام على مناصرة من يعاديه ﷺ، والتهديد هناك مباشر وصريح، بيد أن التهديد هنا جاء بطريق التعريض، وهو بهذا أعمق أثرا، وأشد تخويفا من التصريح به، لأنه يخرج من دائرة القول المحتمل للتنفيذ وعدمه، ويقدمه ومعه من الواقع شواهد صدقه والجد فيه.

وعلى أية حال فإن الشاعر قد صكّ أسماع المشركين في خاتمة أبياته الإسلامية بمثل ما قرّعها به في مطلعها من الوعيد والتهديد، والقصيدة قد حققت غرضها كما أنها أبانت حظ حسان من المهارة وسمو الفن الشعري، بيد أنه قصر في تشخيص موقف قريش الذي لامهم عليه، وذلك في قوله:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

وذلك لأن ما يتهمهم به في البيت هو التسوية بين من يهجو محمداً ومن يمدحه وينصره، ومعنى ذلك أن القرشيين كانوا من نصر محمد وخذلانه في موقف محايد، أو إن شئت فقل هو عدم المبالاة. وهذا التحديد غير دقيق ولم يصب المحز والصواب أنهم كانوا يقربون من يهجو محمداً، ويدنونه من مجالسهم، ويعدونهم حليفاً لهم، ويحاربون من يمدحه، ويتخذونه عدواً لدوداً لهم، ولو أن الشاعر أظهر هذه الحقيقة، وأولاها همزة الإنكار، لكان دقيقاً في تحديد موقفهم، وكشف سوءه، ولكان ذلك أدل على استحقاقهم للتوبيخ والتقريع إلا إذا قيل: لقد كانت تلك غايته التي يتغياها، وسبيله التي يقصدها، ولكن العبادة لم تسعفه أو يحتمل كلام الشاعر على أن لومه لهم على الأمر الهين اليسير وهو عدم المبالاة، فالأولى أن يكون قد لامهم على ما هو أشد من ذلك وأنكى، وهو الانحياز والانعطاف إلى أعداء

محمد - عليه الصلاة والسلام - ولكن هذه الاحتمالات جميعها من المعاذير التي لا تقبلها المقاييس الأدبية.

تأثر القصيدة بعصرها ووقعها في نفوس المسلمين :

إذا عاودنا قراءة القصيدة بأناة، ونظر ثاقب وجدناها تحمل بعض الملامح القوية للعصر الذي قيلت فيه هذه القصيدة، كما أنها تدل دلالة جلية على تأثر الشاعر بالروح السائدة في هذا العصر، حيث إن القصيدة لم تنس الوقائع والأحداث التاريخية التي مرت بحسان بن ثابت، حيث كانت حاضرة في ذهنه، وقد أوماً على بعض جوانب هذه الأحداث ليستغلها بمهارة في تحقيق غرضه من القصيدة، فأوماً إلى موقعتي [بدر الكبرى، وغزوة أحد]، ويهجو أبا سفيان ليسجل عليه ما وصم به من خزي وعار حيث لاذ بالفرار من المعارك لجبنه وخوره، كما ذكر يومئ [بنى المصطلق، وقريظة] ليرعب قريشا، ويذكرهم بما لاقوا من شدة النكال، وعذاب النفس، والهزيمة النكراء، وحسن بلاء المسلمين في هذه المواقع جميعها، والشاعر يعطى لنا صورة صادقة لما أوماًنا إليه آنفاً من استبسال الجيش الإسلامي، وصدق عزيمة المسلمين في خوض الحروب الدائرة بينهم وبين المشركين، والصورة التي رسمها الشاعر تهديداً لقريش، متنبئاً بفتح مكة لم يتزعزع عناصرها من الخيال، بل قبسها من الواقع، واستمدتها من السوابق الحربية للمسلمين، وهذه العناصر المقبوسة من الواقع هي التي أكسبت نبوءة حسان في تبشير رسول الله - عليه الصلاة والسلام - بفتح مكة، وأنه سيدخلها من طريق كداء، ولذلك يروى أن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - لما دخل مكة من كداء قال لأبى بكر - رضى الله عنه - : أنشدنى بعض أبيات حسان، ويعنى عدمنا خيلنا إن لم تروها.... كما جعلت القصيدة تحيي مطابقة لما جرت به الأحداث يوم الفتح، وكأن فرسان المسلمين الذين قادهم [الزبير بن العوام] - رضى الله عنه - ودخلوا مكة من كداء كانوا يقومون ببيان عملي يشرحون به أبيات حسان، فتذكرها النبى ﷺ وطلب من أبى بكر إنشادها له، وهى أيضا تعبر عن تأصل الجانب الروحى فى قلوب المسلمين،

وتؤكد ثقتهم من نصر الله لهم، واعتقادهم الذى لا يخالجه ريب فى أنهم لا يقاتلون المشركين وحدهم، بل إن الله معهم بتثيته لهم، ونصره إياهم، وقد عد القرآن الكريم التثبيت من عوامل النصر للمؤمنين، وسماه القرآن "روحا" والمقصود بالروح فى الآية الكريمة [التثبيت] قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾^(١).

فالمسلمون لا يخوضون هذه المعارك بقوتهم المادية فحسب، وإنما يخوضونها بالجانب العقدى، تساندهم القوة الربانية العليا من عزة الله لهم، ومصاحبة جبريل - عليه السلام - والملائكة التى تقاتل بين صفوفهم، كما حدث فى غزوة بدر الكبرى ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(٢).

كما أن القصيدة تنبئ عن تبدل القيم الخلقية، والمثل الإنسانية فى نظر المسلمين، ويتجلى ذلك فى الأوصاف التى ذكرها الشاعر، وجعلها عنوانا لعظمة النبى عليه السلام، فهى معان جديدة، وقيم لم يكن يعرفها العرب فى مجتمعهم الجاهلى ولا شعراؤهم، فلما سطعت شمس الإسلام رفع منارها لهم، وصارت من المقاييس التى تقاس بها أقدار الرجال، وهى أيضا تشير إلى اتجاه الشعراء نحو القرآن ليقبسوا من أساليبه، وينسجوا على منوالها فى ألفاظهم وتعبيراتهم. والدليل على ذلك أسلوب حسان بن ثابت فى البيت الذى يهدد به قريشا وينذرهما بالفتح إن لم يخلوا طريق المسلمين إلى مكة وهو:

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء

والبيت الآخر الذى يوبخهم فيه على موقفهم من النبى ﷺ، فهو ينظر فيهما إلى قول الله سبحانه "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين"، وهو من الأساليب

(١) سورة المجادلة آية رقم (٢٢).

(٢) سورة الأنفال - آية رقم (١٢).

القرآنية التي ذكر العلماء أنه لم يسبق إليها، وهو لون من ألوان البلاغة التي تسمى لدى علماء البلاغة بـ[تجاهل العارف]، ومرماه البلاغى هو:

"التهكم، السخرية، والاستهزاء". ويمكن أن يكون مرماه وهدفه التنبيه على أمر مهم، وهو: "فإما تعرضوا عنا سنعتمر ونحقق هدفنا وهو فتح مكة المكرمة".

ولقد كان لهذه القصيدة وقع كبير في نفوس المسلمين، وفي نفسية رسول الله عليه الصلاة والسلام، وبقي أثرها محتفظا بجماله، وعظيم أثره في قلب النبي عليه السلام ونفوس الصحابة - رضى الله عنهم - إلى أن مات حسان، وليس أدل على ذلك من طلب رسول الله لأبى بكر أن ينشدها له حينما رأى مسرح العلميات الحربية يشرح القصيدة، ومن طيب أثرها في نفوس المسلمين أنزلت حسان منزلة سامقة لدى النبي والمسلمين وكبار الصحابة الأجلاء، حتى إنها شفعت له في مواقف كثيرة، وخلصته من محرجات كان حسان قد تورط فيها كحادثة الإفك الشهيرة، ولقد غضب عليه الرسول مرة، وهم بعقابه فاسترضاه حسان بقوله: يا رسول الله بأبى أنت وأمى: احفظ قولى:

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

فعفا عنه، ووهبه "سرين" أخت مارية القبطية، وهذا تكريم ما بعده تكريم لحسان بن ثابت حيث جعله النبي عديلا له في المصاهرة، وسامحته وعفت عنه السيدة الفضلى (عائشة بنت أبى بكر) - رضى الله عنها - اشتراكه في حادثة الإفك ومنعت الناس أن يذكروه بسوء حين مرت جنازته عليها، وكان حسان قد اعتذر لها بقوله:

حصان رزان ما تُزَنّ بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
جليلة خير الناس دينا ومنصبًا فى نبيّ الهدى والمكرمات الفواضل^(١)

عقيلة حىٌ من لؤى بن غالب
 مهذبة قد طيب الله خيمها
 فإن كنت قد قلت الذى قد زعمتم
 وإن الذى قد قيل ليس بلائط
 فكيف ووذى ما حييت ونصرتى
 له رتب عال على الناس كلهم
 رأيتك، وليغفر لك الله حرّة

كرام المساعى، مجدها غير زائل
 وطهرها من كل سوء وباطل
 فلا رفعت سوطى إلى أناملى
 بها الدهر بل قول امرئ فى ماحل
 لآل نبى الله زين المحافل
 تقاصر عنه سورة المتطاول
 من المحصنات غير ذات غوائل

ولما بلغ قوله: وتصبح عزتى من لحوم الغوافل

قالت عائشة - رضى الله عنها -: لكنك يا حسان ما تصبح غرثان من لحومهن^(١).

الحصان. العفيفة. الرزان. ذات الثبات والوقار والعفاف تزن - تتهم - غرثى - جائعة - الغوافل مفردها: غافلة، أى أنها لا ترتع فى أعراض الناس. العقيلة: السيدة الكريمة. الخيم الأصل - لائط - لازق - الماحل. من محل به إلى الأمير أى سعى به وكاده وأقرى عليه القول. رتب. ما أشرف من الأرض وهى استعارة للمجد والشرف. سورة. وثبة. الغوافل. غافلة وهى الفساد والشر.

ولهذه القصيدة أيضا كان ابن عباس - رضى الله عنهما - يدافع عنه، ويحجز ألسن الناس عن الخوض فيه.

والسر فى أن القصيدة كان لها ذلك الأثر الجميل فى أنفس المسلمين جميعا وفى مقدمتهم رسول الله ﷺ: صدق القصيدة فيما تنبأت به من فتح مكة، وأنها قيلت فى وقت عصيب، كان للمفاجأة فيه أثر سيئ، والمسلمون حينذاك فى مسيس الحاجة إلى ما يشد عزائمهم، ويقوى همهم، ويشبتهم أمام الأعداء، ويذهب عنهم هول

(١) رواه مسلم.

المفاجأة، فالقصيدة جاءت بمناسبة أحداث الحديبية، والمسلمون كانوا قد فارقوا المدينة، قاصدين مكة لغاية دينية، لم يتوقعوا الاشتباك في حرب عسكرية، فخرجوا مسلمين، يرتدون ملابس الإحرام ويسوقون الهدى مصطحين كل من أراد زيارة البيت من القبائل التي لم تدخل في الإسلام ولكن المشركين فاجأوهم بالتصدي لهم، وقطع الطريق عليهم، ومنعهم من الطواف بالبيت، وجرت السفارة بين الفريقين مقترنة بالشائعات التي شاعت بمقتل عثمان - رضى الله عنه - وكان سفير النبي لدى القريشيين، وبذلك أصبح المسلمون في موقف لا يحسدون عليه، فتأزم المشكلة قد يجرهم إلى حرب لم يتوقعوها، وليس هناك إعداد لها، وقد ثارت النفوس وغلت غلية الرجل، وهنا تجيئ أبيات حسان بن ثابت دواء ناجعا، وبلسما شافيا، للنفوس المضطربة، والقلوب المعذبة، فكانت الأبيات طاقة أمدت بفوحها أنفاس الأمل لدى المسلمين، وباقية جددت بنفحها أسباب الرجاء في نجاة المؤمنين، لما ذكرتهم به من أنهم على الحق، وتصاحبهم القوة السماوية التي لا يمكن أن تتخلى عنهم أو أن تفارقهم، وأن تدارك الأمر من الممكنات، فإن لم يكن بالسلم فليكن بالحرب والإعداد لغزو مكة، والانتقام من طغاتها بالأسيف البتارة، وبذلك جاءت القصيدة كما أومأنا أنفا بلسما شافيا لا ينسى أثره حيث جاء فتح مكة، وصدق حسان في نبوءته، وزاد أثر القصيدة عمقا في قلوب المسلمين، ونقشت في قلوبهم نقشاً لا ينمحى أثره، ولا تزول عدوبته.

القيمة الفنية للقصيدة:

لوحظ على حسان بن ثابت - رضى الله عنه - في قصيدته أنفة الذكر، انتقاله المقترض من بكاء الديار إلى الغزل - ثم تقصيره في تشخيص الجريمة التي قرع قريشا بسببها، ما عدا ذلك فإن الشواهد ناطقة بتأصل شاعريته، وتمكنه من فنه كل التمكن، وتمام التمكن، يستبين ذلك لنا من حسن تصرفه في المعانى والأفكار، وأيضا من وضوح العبارة، ودقته في تأدية المراد، والذي يبدو في أفكاره ومعانيه أن الشاعر أحسن استغلالها، واختيارها، فهو لا يشغل نفسه بكل المعانى التي تتصل

بموضوع معين اتصالاً قوياً أو ضعيفاً، وإنما يضعها في ميزان الاختيار، ويتتقى أقواها ارتباطاً بموضوعه، وقد يكون قليلاً، ثم يتصرف في هذا القليل المختار تصرفاً ماهراً يوضح غرضه، ويغنيه عن إطالة القول بما ترك من معان، مثال ذلك: الغزل في أبياته الجاهلية، فقد اكتفى في الأبيات بالطيف والريق، وبشاعريته الفذة، وامتلاكه أدوات الشاعر الماهر استطاع أن يضمن هذه الأبيات القليلة الكثير، مما يحكى عن تمكن الحب من شغاف القلب وكذلك صنيعه في هجاء (أبى سفيان بن الحارث) في أبياته الإسلامية، فقد ترك الشاعر الكثير من معانى الهجاء التى كان فى مكتته أن يجرح بها أباً سفيان ويسئى إليه، واكتفى بمعان معينة - مع قلتها - مكتته من هدمه والقضاء عليه، ومعرفته بوجوه التصرف الواعى فى المعانى والأفكار نراه قد اكتفى بذكر الحقائق المجردة دون مبالغة أو تهويل، وبذلك كان لها أجل وقع، وأبلغ تأثير، يتضح لنا ذلك فى هجائه لأبى سفيان، حيث استطاع أن يدهم فيه شخصية المحارب بإيلاء بارعة إلى إحدى الحقائق الثابتة، والتى لا يستطيع أبو سفيان إنكارها، أو التملص منها وهى فراره من أسياف المسلمين فى وقعة بدر الكبرى، وبتلك الإشارة سجل عليه عار الخور والجبن، مستغنياً عن كل ما يقال بعد ذلك من عيوب تخرج الرجل من عداد أهل الحرب.

الأفكار التى حوتها القصيدة:

والأفكار التى حوتها القصيدة، ودارت فى فلكها أنها جاءت محكمة الترتيب والتنسيق، فلا يتقدم بعضها على بعض، إلا بحسب ما يقتضيه التسلسل الذهنى، والسابق فيها يسلمنا إلى اللاحق، ويحيى كل منها عقيب الآخر، فهو يتطلبه ويقتضيه، ونتيجة ذلك أنه ظهر فى أبيات كل موضوع من التسلسل والترابط ما يفسده التقديم أو التأخير، وعبرة القصيدة فيها من الوضوح والسلاسة والنصوع والعدوبة ما لا يحتاج إلى برهان، كما أن فيها من الدقة والإحكام ما أكسبها قوة فى الأداء، ودقة فائقة على إبراز المعانى بكل خصائصها، والوصول بها إلى الغاية التى يتغياها دون حاجة إلى إعادة العرض بصورة أخرى، أو الاستعانة على تجلية المعنى

بعبارة تالية، والمتأمل في أبيات القصيدة لا يجد فيها معنى واحداً مكروراً، ولا يجد أيضاً عبارتين تعاونتا على معنى واحد، فهو يؤدي المعنى واضحاً من أول وهلة، فلا يحتاج إلى إطالة أو تكرار. وما أعانه على ذلك براعته في العرض، ومهارته في استغلال الوسائل البيانية، وإحكام صنعه لها، ولا يغض من شأن القصيدة أن جاء أكثرها من الصور الجزئية اليسيرة التي تتجلى في مظهر من التشبيه، أو المجاز المفرد، أو الكناية فقد أغنت كل واحدة من هذه في مكانها ما لا تعنيه العبارات المطولة، كما أنها أبرزت المعنى الجزئي الذي تعبر عنه في صورة دقيقة موحية بكثرة كاثرة من الأحاسيس والانفعالات، وتؤثر بذلك في محيط المعنى العام، وحسبه دليلاً على براعته في التصوير تلك الصورة الرائعة التي رسم فيها الغزو المروع، وما أعد له من فرسان، وسلاح وخيل، وما يجري فيه من اندفاع واستبسال وسرعة ومتابعة، وما يصحبه من رعب وهلع، وما ينتهي إليه من نهايات مروعة ينفطر لها القلب، ويذهل لها اللب وقد جاء ذلك في أبيات قليلة. ومن الدقائق الفنية في عبارة القصيدة ذلك الذي نشاهده من التنوع في مسالك التعبير، ولا نعنى من ذلك ما هو واضح من تلوين الأساليب بألوان من الجمل الخبرية والإنشائية، فذلك أمر سهل، وإن كان طيب الأثر في تشييط السامع وإيقاظه، وإنما نقصد به ضرباً آخر من التلوين فيه دقة، ولا استطاع ذلك إلا بحذق ومهارة، كما يتجلى ذلك في تنقل الشاعر بين التعبيرات المباشرة وغير المباشرة، فالمباشرة هي التي يواجهك فيها المتكلم بما يريد، وغير المباشرة هي التي لا يصارحك فيها بمقصوده، وإنما يلقي إليك من الكلام ما يوحي بهذا المقصود، معتمداً في ذلك على ذكائك، وفطنتك، وهذا ما فعله حسان رضي الله عنه، فهو على حين يسلك المسلك الأول في غير موطن من القصيدة، نجده يختار المسلك الآخر، وقد رأينا كيف استطاع بما ذكر من أحوال الديار المثيرة للوعة، وكوامن الشجن أن يجعلنا نشعر بحزنه عليها، بل ويجعلنا نشاركه شجونه وأحزانه، دون مصارحة منه أنه حزين، أو يطلب منا إسعاده، حدث [لقريظة وجذيمة] دون أن يقول لهم (سنفعل بكم كذا، وسنصنع بكم كذا)، والقصيدة باستثناء المأخذين السابقين. تحمل من سمات البراعة، ودقة الصنعة ما يرجح كفتها في الميزان.

مكانة القصيدة من شعر حسان:

ووضع القصيدة من شعر حسان يقودنا إلى الحديث عن كل من شطريها على حدة، فالشطر الجاهلي يمثل شعر حسان قبل الإسلام، وقد كان فحلا من فحول الجاهلية، وشعره في هذه الحقبة من أجود الشعر بشهادة (الأصمعي) وهو أشعر أهل القرى لدى (ابن سلام الجمحي) وطاقته القادرة المؤثرة هي التي حدث به إلى كثرة المفاخرة بلسانه كما وقع ذلك في شعره، دون معارضة من أحد أو إنكار عليه، وهي التي مكنته من خوض الأسواق والمحافل يزاحم كبار الشعراء، كما أن مدائحه الرائعة فتحت له أبواب ملوك غساسنة الشام، ومناذرة الحيرة، وقدمته أحيانا في الجوائز على (الأعشى والنابعة)، وفخره أكسبه التفوق والانتصار على مزاحيه ومنهم (قيس بن الخطيم) في الصراع القبلي بين الأوس والخزرج، ومن تلك الألوان التي تثبت تفوقه ومقدرته الشعرية صدر هذه القصيدة. أما بقية أبياتها، فهي بلا ريب من أروع ما قاله حسان في الإسلام، ومن أحفلها بسمات الشاعرية البارعة، إذا فما قيمة هذه القصيدة بالنسبة إلى شعره الجاهلي؟ قد جرى القول بين النقاد، ودارس أدب حسان على أن شعره في الجاهلية مستدلين على ذلك أن حسان أدرك الإسلام في سن متقدمة، فنضحت الشيخوخة الضعف والوهن في شعره، واضطراره إلى الارتجال في الأغلب الأعم من مواقفه الإسلامية انحدر به عن مستواه الأسبق، ولم يمكنه من تشذيب شعره وتنقيحه، وأن انكفاه بخير الإسلام عن غواية الجاهلية وشرورها أنزله دون منزلته، وأورثه الضعف في شعره، لأن الشعر يقوى في الشر، وهؤلاء يستدلون على مقولتهم هذه بقول الأصمعي: (الشعر نكد، بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، ولأن. هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره)، ثم ما نسب إلى حسان من أنه سئل عن ضعف شعره في الإسلام، فقال: (إن الإسلام يحجز عن الكذب، والشعر يزينه الكذب)، والواقع أن هذا الحكم غير مطرد على الرغم مما قدم لتبريره من علل وأسباب، لأنها أسباب وعلل يستحيل أن تطرد، ولا تثبت على التمهيص، وفي وسعنا أن نقضها كلها أو

على الأقل بعض هذه العلل وتلك الأسباب، فنستطيع أن نبطل التلازم بين ضعف الشعر مع كبر السن، فكم من شاعر لم يزدته تقدم سنه إلا تكاملاً ونضجاً في شعره، والدليل على ذلك النوابع الذين لم يظهر نجمهم إلا بعد أن تقدمت بهم السن، ولذلك سمو بهذا الاسم ومنهم (النابعة الديباني)، وكذلك أمير الشعراء (أحمد شوقي)، أما معارضتنا لمقولة بعض النقاد أن من أسباب ضعف شعر حسان (الارتجال)، حيث إن الارتجال لا يعوق الشاعر عن الإجابة مادام منفعلاً بالموقف الذى تهيأ للإشاد فيه ودليلنا على ذلك الشاعر نفسه، حيث إن له قصائد ومقطوعات مرتجلة، ومع ذلك لم يتخونه التوفيق فيها، ولم يلحقها وهن ولا فتور، والدليل على ذلك قصيدته التى بين أيدينا. أما قضية الخير والشر، فهو قضية خاسرة، فليس معقولاً ولا مقبولاً أن تكون القوة والنجاح فيه مقصوراً على موضوعات معينة، ويكون السقوط والضعف حليقين لموضوعات أخرى، ولو سلمنا بهذا الرأي؛ لأصبح لزماً علينا أن نشطر نتاج كل شاعر بحسب موضوعاته وتنوعها بين الشر والخير إلى شطرين: شطر قوى، وشرط ضعيف. ولا ينتفى أن يكون للخير شاعر مبرز ولا نمحى من سجل الخالدين أولئك الشعراء الذين لم يفتحوا للشر باباً فى أشعارهم، ولبطلت حقيقة ثابتة يعلمها كل البشر من أمر حسان، فمن المسلمات أنه ظفر بخصومه فى الإسلام وأخرس ألسنتهم، كما انتصر على أعدائه فى الجاهلية وأفحمهم، فهل نقول إن انتصاره فى العهدين كان بقوة شعره، وشدة تأثيره، أم نقول إنه كان فى الجاهلية بقوة الشاعرية، وكان فى الإسلام بضعفها مع الصدق؟ إننا بذلك نقول قولاً عجبا. ولا ننكر أن يكون دعاء النبى ﷺ له، ووعد إياه بتأييد روح القدس، كانا من أهم أسباب نجاحه وظفره، وانتصاره على خصومه، ونؤمن بأنه بالنصر على خصومه ملأ نفسه بالثقة، فخاض المعارك ضد الأعداء قوى الروح، وسيطر على الميدان بنفس تملؤها الطمأنينة، وذهن متقد يقظان، كذلك كانت استجابة الله سبحانه لدعاء نبيه - عليه السلام - لحسان بن ثابت - رضى الله عنه توفيقاً له يبصره بأسباب القوة، ويهديه سبل التأثير، فيودع

ذلك شعره، والقصة التي سئل فيها الشاعر وأجاب عرضة للطعن والتجريح، فيكف يجيب هذا الجواب الذي يجعل الكذب عماد الشاعرية الحقيقية؟ ليس بمعقول أن يكون هذا جواب (حسان بن ثابت) لأنه يناقض مذهبه في الشعر، فهو يدين بمذهب الصدق، ويسجل ذلك في قوله الذائع:

وإنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كيساً وإن حُمُقا^(١)
وإن أشعر الشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقاً

ومع ذلك فإن اصطباغ هذا الحكم بصبغة الشمول مما يضيع قيمته في نظرنا، فليس في أحكام النقد الأدبي أدنى إلى التخليط والخطأ، وأنأى من الدقة والصواب، من حكم النقد الأدبي أدنى إلى التخليط والخطأ، وأنأى عن الدقة والصواب، من حكم عام يرسله صاحبه، بدون احتياط أو استثناء، والحكم العادل الدقيق في تقويم الآثار الأدبية هو الذي يؤخذ من داخل الأثر نفسه، ويقاس بما تضمنته أبياته من وجوه البناء الصحيح، وما تحقق به أو ضاع من أهدافه وغاياته، بغض النظر عن قدم زمانه أو حداثة، دينكم هو الطريق السوي في نقد الآثار الأدبية، وهو ما يجب أن ينهج لدى تقويم شعر حسان في الجاهلية والإسلام، فإذا كان النقاد قد سلكوه حين ارتفعوا بأشعاره الجاهلية، وإذا كانوا قد حكموا لها بالقوة لأنها استكملت الوسائل الفنية، وحققت ما نيط بها من أغراض، فمنطق العدل يقتضينا أن نسوى بها كل ما استوفى هذه الأسباب من شعره الإسلامى ولقد رأينا حال دراستنا للأبيات التي بين أيدينا أن حسان لم يقصر في بنائها الفني، وأنه لم ينقطع بها دون الغاية التي رصد لها، وهي (الإرهاب بالتهديد)، والهجاء والتحطيم.. فهل نحرّم الأبيات ما استحقته من وصف القوة، ثم ندفعها بالسقوط والضعف لأن الأبيات قالها بعد إسلامه؟ لا يمكن بالطبع أن نغمرها حقها، لمجرد أن الأبيات قالها حسان بعد إسلامه.

(١) الديوان ص ١٦٩. الكيس. العقل والظرف والفتنة. الحمق. الجهل.

شعر حسان الإسلامى فى الميزان:

نسب إلى حسان شعر إسلامى كثير، نبه النقاد إلى ما فيه من شعر منحول وضعه القصاص، وحملوه عليه، وقد ورد ذلك فى كتب السير وبعض المصادر الأدبية، وهذا الشعر لا نستطيع أن نأخذ به الشاعر، فلا نحكم له بجودته، ولا نأخذ عليه رداءته، فالشعر الذى يصطبغ بصبغة حسان، ونجد طابعه فيه يكون ذلك من شعره، وما عاداه فهو منفى عنه، دون توسع فى دعوى الانتحال بخداع من ظاهره، ونستبعد من شعره ما يصح استغلاله فى اتجاهات حزبية سياسية، فهذا منطق غير سديد، واتجاه مخدوع، فإن كان فى تمجيد البطولة لبعض الصحابة أو فى البكاء لما حل بهم، قيل إن أقوامهم صنعوه على لسان حسان، وإن كان فى هجاء بعض الأفراد والقبائل، قيل إن أعداءهم اختلقوه على حسان ليشهروا بهم، وهكذا إلى أن ينفذ شعر حسان حيث إنه لا يخلو فى أغلب مواقفه الإسلامية من أحد الاتجاهين، وما صح نسبته من أشعاره الإسلامية، فإن فيه القوى المحكم، وأيضا تجذ فيه الضعيف اللين. ويرجع ذلك إلى استعداده النفسى والموضوعات التى يتناولها، من حيث النوع والغرض، فإذا اضطر فى متابعة الأحداث المتلاحقة أن يقول الشعر وهو فاطر النفس ضعيف النشاط فإنه حينئذ يضعف، لأن القريحة كليله، أصابها الوهن والفتور. وجدير بالذكر هنا تلك الظاهرة الغريبة التى تتجلى بوضوح فى شعر كل من عاصر الرسول عليه السلام من الشعراء، ومنهم حسان بن ثابت، أن شعرهم يجيئ ضعيفا فى كل ما يتصل بشخص رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وخاصة إذا أفردوا القول فيه عن القول فى جماعة المسلمين، فإن كل ما يقوله الشعراء من مدائح ومراثٍ، لا يمكن أن يرتفع إلى مقام رسول الله السامى، ولا يدانيه، ولعل ذلك كان بتدبير من حكمة الله حتى لا يقع فى الأوهام أن أبواق الدعاية - بلغة العصر الحديث، وأجهزة الإعلام وأقواها حينئذ الشعر - كانت من أسباب عظمته، وعلو شأنه ﷺ، ولعل تهيب الشعراء من عظمته وجلاله له أثر على نفوسهم، فأوقعها فى العجز، ولم يمكنها من إجادة القول فيه، أو لعل الجلال والعظمة كان غامرا على مشاعرهم، فلم تستطع أن تدرك كنهها، ولا أن تستبين سرها، أو لعل ذلك راجع إلى أن رسول الله ﷺ كان لا يحب المديح، فقد كان - عليه

الصلاة والسلام - يحثو التراب في وجوه المداحين وقد مدح بعض الصحابة أخوا له في الإسلام أمام رسول الله ﷺ فقال له عليه السلام: (لقد قطعت عنق صاحبك)، وخاصة أنه - عليه الصلاة والسلام - صاحب الخلق العظيم، وامتدحه ربه عز وجل بارئ السماوات والأرض، فليس بحاجة إلى مديح الشعراء، أو أبواق الدعاية، والإعلام التي يعتمد عليها الرؤساء والسلطين في توطيد حكمهم، وإذاعة أعمالهم، والإشادة بهم في المحافل. أما إذا سلمت نفس الشاعر من فتورها، وكان في موقف يثير شاعريته، ويوقظ حسه، وتنفعل به نفسه فإنه حينئذ يوفق في القول، ويقوى في الشاعرية، فإذا اجتمع له من ثورة النفس، ونشاط الشاعرية أن كان يعالج أمرا مألوف العلاج من قبل، بلغ من القوة ما أراد، سواء أكان مرتجلا، أم غير مرتجل، وما قاله حسان في الإشادة بالنصر والفخر، والهجاء والتهديد، وثناء شهداء المسلمين، فهو من الشعر الرصين، لأنه يكون في هذه المواقف ثائر النفس، صادق العاطفة، متحمسا لما يقول، ومؤمنا به، فهي موضوعات تهيج المشاعر وله في تناولها دربة ومران. ولذلك نقرر أن أبياته أنفة الذكر لا تنفرد من بين أشعاره الإسلامية بوصف القوة، ولا تستقل وحدها بحكم التعادل مع شعره الجاهلي من حيث استواء البناء الشعري، مهارة التصرف الفني، والقدرة على التأثير وبلوغ الهدف، بل وتشاركها في هذا الأمر قصائد ومقطوعات كان التوفيق فيها حليف الشاعر حسان بن ثابت، ومن روائع قصائده هذه: قصيدته التي يستهلها بقوله:

إن الذوائب من فھر وإخوتهم	قد بينوا سنة للناس تتبع ^(١)
يرضى بها كل من كانت سريرته	تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوهم	أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفّعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة	إن الخلائق، فاعلم، شرّها البدع

وقد ارتجلها ليعارض بها قصيدة الشاعر (الزبرقان بن بدر) شاعر وفد تميم حين

(١) الديوان ص ١٤ دار صادر - بيروت - لبنان - بدون تاريخ.

قدموا على الرسول عام الوفادة وهو العام التاسع للهجرة وقد وفق حسان في الرد عليه، كما وفق أيضاً (ثابت بن قيس بن شماس الخرزى) في الرد على خطيب الوفد، وكان توفيقهما مفتاح الخير لبنى تميم، فعدوه تأييداً من الله للرسول - عليه الصلاة والسلام - وبسببه اهتموا إلى الإسلام. ومن روائع شعر حسان قصيدته التي يفخر فيها بمساعى قومه في الجاهلية، وبمؤازرتهم للنبي وانتصاراتهم على قريش في الإسلام قوله:

أهاجك بالبيداء رسم المنزل؟	نعم، قد عفاها كل أسحم هاطل ^(١)
وجرت عليها الرّامات ذيولها	فلم يبق منها غير أشعث مائل
ديارُ التي راقَ الفؤادَ دلالُها	وعزّ علينا أن تجودَ بنائل
لها عين كحلّاء المدامع مطفل	ثراعى مقاماً يرتعى بالخمائل

الاسحم: السحاب الأسود. الهاطل: الممطر. الرّامات: الرياح التي تثير التراب متدفن به الآثار: الأشعث: الوتد. المائل: المنتصب. كحلّاء المدامع: الظبية. المطفل: ذات الطفل. الخمائل: واحدة خميلة، وهو من الرمل ما أنبت الشجرة. ومنها قصيدته التي يباهى فيها بمثل ما سبق، ويزيد عليه مادحه الخاصة، وقد استهلها بقوله:

الأخيل: طائر مسّوم، وهو المسمى بالشقراق.

تبلت: أسقمته وذهبت بنقله. الخريدة: الحبيبة الساكنة وأراد بالبارد. ثغرها. كالمسك - شبه ريق ثغرها بالمسك العاتق: الخمر.

للكِ الخيرُ، غضى اللومَ عنى، فإننى	أحبُّ من الأخلاق ما كان أجملًا ^(٢)
ذرينى وعلمى بالأُمور وشيمتى	فما طائرى يوماً عليك بأخيلاً

(١) الديوان ص ١٨٢ دار صادر - بيروت - لبنان.

(٢) ذاته ص ٢٠٦.

فإن كنت لا متنى ، ولا من خليقى فمنك الذى أمسى عن الخير أعزلاً

ومنها قصيدته التى يهجو فيها (الحارث بن هشام المخزومى) ويعيره بالفرار فى معركة بدر تاركاً أخاه (أبا جهل) تنوشه أسياف المسلمين فيقول:

تبلت فؤادك فى المنام خريدة تسقى الضجيعُ ببارد بسام^(١)
كالمسك تخلطه بماء سحابة أو عاتق كدم الذبيح ملام

وقد أوجع حسان (الحارث) بهجائه فيها، وبرع فى تعبيره والسخرية به والتهكم منه حتى اضطر أن يعتذر عن فراره فى ذلك اليوم، اعتذاراً قد ياباه الخلق العربى، وتنكره الفروسية، والطبع الشجاع، بيد أنه لا يخلو من البراعة والتفنن فى التماس المعاذير، فيقول الحارث:

الله يعلم ما تركت قالتهم حتى علوا فرسى بأشقر مزيد
وشممت ريح الموت من تلقائهم فى مأزق والخيل لم تتبدد
وعلمت أنى إن أقاتل واحداً أقتل ، ولا يضررُ عدوى مشهدى
فصدت عنهم ، والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد

فهو لا ينكر الفرار، ولكنه يعتذر عنه، فيشهد الله على أنه لم يترك قتال المسلمين إلا بعد أن أثنوا جراحه، وجللوا فرسه بدمه، وبعد أن أحس رائحة الموت تنبعث إليه من ناحيتهم، وتملاً خياشيمه فى مضيق تحاصره الخيل فيه، وبعد تأكده من أن استمراره فى القتال وحيداً لا بد أن ينتهى بمصرعه، دون أن يلحقهم أذى أو ضرر، فعندئذ ولى عنهم وفر، تاركاً أحبابه بينهم، مؤملاً أن ينتقم منهم فى لقاء آخر يستعد له. وهيهات أن تغسل عن براعة الاعتذار، عار الخوار والفرار. ومنها قصيدته التى يخفف بها وقع النهاية الأليمة فى غزاة "أحد"، وذلك بتسجيل ما كان فى الجولة الأولى من حسن بلاء المسلمين، وشدة نيلهم من المشركين ومطلعها:

(١) ذاته ص ٢١٤.

منع النّومَ بالعشاءَ الهمومُ وخيال إذا تغورت النّجومُ
من حبيب أصابَ قلبك منه سَقَمٌ، فهو داخلٌ مكثومٌ^(١)

ومنها قصيدته التي فخر فيها "بنى دارم من تميم" وذلك عام الوفادة، ويستهلها بقوله:

هل المجد إلا السؤدد العرد والندى وجاء الملوك، واحتمال العظائم
قصرنا وأويننا النبي محمدا على أنفٍ راضٍ من معدٍّ وراغمٍ
بحيٍّ حَرِيدٍ أصله وذماره يحابيه الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حلّ وسط رجالنا بأسياقنا من كل باغ وظالم
ونحن ضربنا الناسَ حَيًّا تتابعوا على دينه بالمرهفات الصّوارم
ونحن وَلَدْنَا من قريش عظيمها ولدنا نبيَّ الخير من آل هاشم^(٢)

وختاماً.. رضى الله عن سيدنا "حسان بن ثابت"، ودعوته، وجزاه خير الجزاء.

(١) الديوان ص ٢٢٤. تغورت النجوم. غابت.

(٢) الديوان ص ٢٢٩.

الوفادة: يوم وفود نبي تميم على النبي عليه السلام. القود: القديم الحريد: المنفرد عن القبيلة، وأراد بالأعاجم: آل غسان لأن منازلهم في الجولان. المغانم: ما فاء للمسلمين من الغنائم دون حرب يعنى أن بنى النجار ولدت أم عبد المطلب جد النبي عليه السلام.

مفاخرة بين الزبرقان وحسان بن ثابت "رضى الله عنه"

وكان قد وفد على رسول الله ﷺ وفد "بنى تميم" عام الوفود، وكان ذلك بعد فتح مكة، وفيهم عطارد بن حاجب بن زرارة، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحارث، ونعيم بن زيد، وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، والأقرع بن حابس (في لفهم ولفيفهم) ودخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد؛ فتأذى رسول الله ﷺ من صياحهم. وفي ذلك نزل قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

ثم خرج إليهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - فقالوا: يا محمد: جئناك لنفاخرك فاذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: قد أذنت لخطيبكم، فليقل، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة، فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضل، وهو أهله الذى جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما نفعل منها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عدداً، وأشدّه عدة، فمن مثلنا فى الناس؟

ألسنا براءوس الناس، وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثلما عددناه وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنّا تنحين عن الإكثار. وأقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا. ثم جلس " فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس الخزرجى: قم

(١) سورة الحجرات الآية رقم "٤، ٥".

فأجب الرجل في خطبته، فقام ثابت بن قيس فقال: الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شئ قط إلا من فعله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خير خلقه رسولا، أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، وأفضله حسبا، فأنزل عليه كتابه، واثمنه، وكان خيرة العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيـمان به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه، وذوو رحمة، أكرم الناس أحسابا، وأحسنهم وجوها، وخير الناس فعالا ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب الله حين دعاه رسول الله ﷺ فنحن أنصار الله، ووزراء رسول الله، فقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله، متع بـإله وبه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرا، أقول هذا، واستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم؟ فقام الزبرقان بن بدر التميمى، فقال:

نحن الكرام فلا حى يعادلنا	منا الملوك وفيـنا يقسم الربع ^(١)
وكم قسرنا من الأحياء كلهم	عند النهاب وفضل العزيتبع
ونحن نطعم عند القحط مطعـنا	من الشواء إذا لم يؤنس القزع
ثم ترى الناس تأتينا ثراتهم	من كل أرض هويا ثم نصطنع
فتنحر الكوم عبطا فى أرومتنا	للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حى تفاخرهم	إلا استقادوا وكانوا الرأس يقتطع
إنـا أبينا ولم يأبى لنا أحد	إنـا كذلك عند الفخر نرتفع
فمن يقادرنا فى ذاك يعرفنا	فيرجع القوم والأخبار تستمع

(١) انظر الديوان صـ ١٤٤.

الربع: أى ربع الغنـيمة (وكان يأخذه الرئيس فقى الجاهلية).

يؤنس: يرى.

هويا: مسرعين

الأرومة: الأصل

نصطنع: أى نصنع المعروف

استقادوا: أعطوا مقادتهم.

وكان حسان بن ثابت غائباً، فبعث إليه رسول الله ﷺ. قال حسان فلما جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، خرجت إلى رسول الله - عليه السلام وأنا أقول:

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا على ألف راض معدّ وراغم
منعناه لما حل وسط بيوتنا بأسيفنا من كل باغ وظالم

قال: فلما انتهيت إلى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وقام شاعر القوم فقال ما قال، عرضت في قوله وقلت على نحو مما قال، فلما فرغ الزبرقان بن بدر من قوله: قال رسول الله ﷺ - لحسان بن ثابت - رضى الله عنه: قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال، فقال حسان:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياءهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
ولا يضمنون عن مولى بفضلهم ولا يصيبهم فى مطمع طبع
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم فى فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم لا يطبعون، ولا يرديهم الطمع
كم من صديق لهم نالوا كرامته ومن عدو عليهم جاهد جدعوا
أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا
إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم أهل الصليب ومن كانت له البيع

خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا
فإن فى حربهم - فاترك عدواتهم -
نسموا إذا الحرب نالتنا مخالبا
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم
كانهم فى الوغى والموت مكتنع
إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
أهدى لهم مدحى قلب يؤازره
فإنهم أفضل الأحياء كلهم

ولا يكن همك الأمر الذى منُعوا
شراً يخاض عليه الصاب والسلعُ
إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
أسد بيشة فى أرساغها فذع
كما يدب إلى الوحشية الذرع
إذا تفرقت الأهواء والشيع
فيما أحب لسان حائك صنع
إن جدّ بالناس جد القول أو شمعوا^(١)

فلما فرغ حسان بن ثابت - رضى الله عنه - من قوله، قال الأقرع بن حابس:
وأبى إن هذا الرجل، ويعنى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - لمؤتى له، لخطيبه
أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا. فلما
فرغ القوم أسلموا، ومنحهم النبى - عليه الصلاة والسلام - جوائز عظيمة.

الأفكار التى انتظمتها القصيدة:

أولاً: الرسول وأصحابه من المهاجرين والأنصار، قد بينوا للناس طرق الخير.
ثانياً: يرضى بمبادئهم القويمة كل من صفت نفسه وطهرت سريره.
ثالثاً: إن هؤلاء السادة الأشراف صُبُرٌ فى الحرب، صُدُقٌ لدى اللقاء، كما أنهم
أهل مروءة، وكرم وإحسان فى السلم.
رابعاً: أنه ليس من شيمتهم الزهو، والعجب، والفخر إذا ما أظفرهم الله
بعدوهم، وانتصروا عليه، كما أنه لا يصيبهم الذعر، أو الهلع والخوف إذا ما ابتلوا
بالحزيمة.

(١) انظر الديوان ص ١٤٥ وما بعدها ط دار صادر - بيروت - لبنان بدون تاريخ.

ما وقعوا: يريد أنهم أعزة - الطيع: الوسخ والدنس وبعوا: أقاموا - الصبا والسلع: ثجرمر - المكتنع: الدانى القريب - بيشه: مأسدة وهو الآن اسم لبلد بالمملكة العربية السعودية - القدع: زوال الرسخ فى اليد إلى وحشيها - الذرع: ولد البقرة الوحشية - شمعوا: مزحوا.

بأبى وأمى

قال حسان بن ثابت - رضى الله عنه - يرثى النبى ﷺ:

ما بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا
جَزَعًا عَلَى الْمَهْدَى، أَصْبَحَ ثَاوِيًا
جَنْبَى يَقِيكَ الثَّرْبُ لَهْفَى لَيْتَنَى
بَأبَى وَأُمَى مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ
فَظَلَلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّدًا
أُقِيمُ بَعْدَكَ بِالْمَدِينَةِ بَيْنَهُمْ؟
أَوْ حَلَّ أَمْرُ اللَّهِ فِينَا عَاجِلًا
فَتَقُومَ سَاعَتُنَا فَنَلْقَى طَيْبًا
يَا بَكَرَ أَمِنَةِ الْمُبَارَكِ ذِكْرُهُ
نُورًا أَضَاءَ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
يَا رَبِّ! فَاجْمَعْنَا مَعًا وَنَبِيَّنَا
فِي جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ وَاكْتُبْنَا لَنَا
وَاللَّهُ أَسْمَعُ مَا بَقِيَتْ بِهِالِكَ
يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ
كُحِلَتْ مَاقِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ^(١)
يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى لَا تَبْعَدِ
غُيْبَتْ قَبْلَكَ فِى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ
فِى يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ النَّبَى الْمُهْتَدِ
يَا لَهْفَ نَفْسِي لَيْتَنَى لَمْ أُوَلِدِ
يَا لَيْتَنَى صُبَّحْتُ سَمَّ الْأَسْوَدِ
فِى رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْفَى غَدِ
مَحْضًا ضُرَائِيهِ كَرِيمِ الْمُتَحَدِ
وَلَدْتُكَ مُحْصَنَةً بِسَعْدِ الْأَسْعَدِ
مَنْ يُهْدِ لِلنُّورِ الْمُبَارَكِ يَهْتَدِ
فِى جَنَّةِ ثَنْنَى عُيُونِ الْحُسَدِ
يَا دَا الْجَلَالِ وَذَا الْعُلَا وَالسُّودِ
إِلَّا بِكَيْتُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ
بَعْدِ الْمُغْيَبِ فِى سَوَاءِ الْمَلْحَدِ

(١) الديوان ص ٥٧ ط دار صادر - بيروت - لبنان

١- أغيد: ناعم متين.

٢- متبلداً: متحيراً.

ضَاقَتْ بِالْأَنْصَارِ الْبِلَادُ فَأَصْبَحَتْ
وَلَقَدْ وَلَدَتْهُ وَفِينَا قَبْرُهُ
وَاللَّهُ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَى بِهِ
صَلَّى إِلَهُهُ وَمَنْ يَحْفُ بِعَرْشِهِ
فَرِحَتْ نَصَارَ يَثْرِبَ وَيَهُودَهَا
سُوداً وَجُوهُهُمْ كَلَوْنِ الْإِثْمِدِ
وَقُضُولُ نِعْمَتِهِ بِنَا لَمْ يُجْمَدِ
أَنْصَارُهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مَشْهَدِ
وَالطَّيْبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدِ
لَمَّا تَوَارَى فِي الضَّرِيحِ الْمَلْحَدِ^(١)

الدراسة والتحليل:

يقول الشاعر حسان بن ثابت - رضى الله عنه - إنه لم ينم جزءاً وتفجعاً على رسول الله ﷺ الذى ثوى، ويرجو من الرسول عليه السلام ألا ينأى عنه، فهو يقيه الترب بوجهه، ثم يقول متلهفاً، حزيناً باكياً، متمنياً الموت لنفسه، ويعيش النبی - عليه الصلاة والسلام - ولا يقف حسان عند هذا الحد بل هو يفديه بأبيه وأمه متسائلاً هل يستطيع الإقامة بعده فى المدينة المنورة؟ متمنياً لو كان لدغه ثعبان أسود فيموت سريعاً، أو يحل فيه قضاء الله عز وجل وتقوم القيامة كي يحشر الناس ويقوموا من قبورهم ليلتقى بمحمد ﷺ وحزبه ثم يتوجه الشاعر إلى الرسول عليه السلام ليذكر كيف كانت والدته ﷺ يميناً وبركة، ونوراً يضىء للبشرية جمعها، وليهتدى بنوره السالكون الحيارى. ثم نرى حسان يضرع إلى ربه أن يجمعه مع النبی - عليه الصلاة والسلام - فى جنة الفردوس، راجياً من الله أن يكتبها له فإنه

(١) الديوان ص ٥٨.

١- أصبحت: سقيت صباحاً.

٢- الضرائب، الواحدة ضريبة: الطبيعة والسحبة. المختد: الأصل. المآقى: مجارى الدموع من العين الأرمد: المريض بالزمد. بقيق الفرقد: مدافن المدينة.

٣- تنئى: ترد وتدفع. بأبى وأمى. أفتديك بأبى وأمى. يوم الاثنين هو وفاة النبی عليه السلام المحصنة. العفيفة. سعد الأسعد. المراد سيد السُّعود وهو نجم يعنى ولدته أمانة بنت وهب باليمن والبركة. تغنى: تصرف وتمنع.

٤- الإثم: الكحل. المتبلد: جامد العقل وهو البلید. المتلدد: الحائر فى أمره. صبحت. سقيت صباحاً. سمّ الأسود. سمّ الأقصى الأسود وهى من أخبت الحيات وسمّها لا ينجو منه اللدغ. المحض. الخالص. الضرائب. السجایا. المطباع. المختد. الأصل.

سبحانه له الجلال والعلا والسؤدد، وهو القادر القهار وليس أمراً سهلاً أن يبحث الدارس لأبيات حسان عن المعانى التى حوتها الأبيات وخاصة الأبيات الثمانية الأولى، وذلك لأن الشاعر لم يشأ أن يصوغ فكراً بل كان يصور لوعة وأسى، وتفجعاً وحزناً يعتصر الفؤاد، ويدمى القلب، والتى لم تخف حدثها، ولم تهدأ ثورتها منذ أن ثوى رسول الله ﷺ على الرغم من مرور الأيام، وتوالى الحداث.

الأبيات جاءت تصور لنا قلباً محزوناً باكياً، ومسهداً شاكياً. فأودع حزنه الأبيات، وجسم لوعته وأسائه فى النغمات، ويتمثل لك هذا فى حياته كلها. لذا نجده يسأل نفسه "على طريقة التجريد" وهو لون من ألوان البلاغة يكسب الكلام رونقاً وبهاءً، ويكسوه ثوباً قشيباً، ويزيده حسناً وجمالاً، وروعة وبهاءً، وفى مسألته هذه يجعلك تحس بأن الحسرة تملأ قلبه، ويفعم بها فؤاده وذلك فى قوله: "ما بال عينك لا تنام" ثم يحيب على السؤال بنفسه فيقول: "جزعاً على المهدي أصبح ثاويًا" ثم ينادى الرسول عليه السلام متصوراً أنه حى وباقي فيقول: "يا خير من وطئ الحصى" وحق له ذلك فيقول الرسول ﷺ "حياتى خير لكم، ومماتى خير لكم، فإذا كنت حياً فإننى أنا بينكم، وإن مت تعرض على أعمالك، فإن وجدت خيراً أهدت الله، وإن وجدت غير ذلك استغفرت الله لكم" ثم يرجوه بعد ندائه له، فيقول له: "لا تبعد" ولكن النبى العظيم عليه السلام قد ثوى فى التراب وبعد عنه. ويتمنى حسان أن يقيه التراب ولو بوجهه "على طريقة الخبر" فيقول له: "وجهى يقيك التراب" ثم يفىق الشاعر ويعلم أن ذلك غير ممكن فيتمنى لو كان مات قبله، فيقول: "ليتنى غيّت قبلك فى البقيع" ثم يفنديه بأبيه وأمه مرة ثانية، مع علمه أنه لا مجال لذلك العمل حيث حضر حسان وفاته - عليه الصلاة والسلام - وشاهدها بنفسه، ورآها بعينه، ثم يخبرنا الشاعر بأنه جامد الحس، متحير النفس، مشدوهاً حائراً فيقول: "فظللت بعد وفاته متبلداً متلداً" ويتمنى إن لم يكن ولداً أصلاً "يا ليتنى لم أولد" ولكنه ولد وأسلم ونصر رسول الله

بلسانه وشعره، وشهد وفاته، ثم يتعجب من حياته بعد الرسول - عليه الصلاة والسلام - فيقول متسائلاً: أأقيم بعدك بالمدينة بينهم؟! " ويرى الشاعر أنه لا سبيل إلى الخلاص من هذا الأسى، وذلك الحزن إلا بموته وتخلصه من الحياة نفسها ويومذاك يكون قد استراح من الأسى والحزن الذى أترع قلبه، وأفعم فؤاده. عندئذ يتمنى حسان أن يُسقى سم الأفعى الأسود والذى لا ينجو من لدغه أحد، فيحل به قضاء الله فتفيض روحه إلى بارئها، وهنا تسنح الفرصة ليلتقى برسول الله ﷺ صاحب الرسالة العظمى، والخلق السوى، والطبع الصفى، والأصل الكريم ثم يناديه معظماً ومكبراً أمه في حصانتها وعفتها، ومعظماً ولادته في سعداء، ويمنها وبركتها، فيقول:

يا بكر أمانة المبارك بكرها ولدته محصنه بسعد الأسعد

ثم يذكر أن مجيئه إلى الدنيا كان نوراً أضاء الكون كله، واهتدى به الحيارى، وكل من عرف الطريق إليه. فيقول:

نور أضاء على البرية كلها من يهد للنور المبارك يهتدى

ثم نراه في آخر الأبيات ينادى ربه سبحانه ويرجوه مخبتاً ضارعاً أن يجمعه الله بحبيبه النبی العظيم في جنة الفردوس وأن يكتبها له، فيقول:

فى جنة الفردوس فاكتبها لنا يا ذا الجلال وذا العلا والسؤدد

هذه قصيدة الشاعر "حسان بن ثابت" - رضى الله عنه - ومعانيها مملوءة بألوان شتى من العاطفة المضطربة المشوبة في نفسه والتحسر والجزع والتلهف، ثم القلق، والتضرع والرجاء، والتعجب من الحياة، وكراهية الإقامة فيها، وتمنى الموت، والتطلع للقاء المحبوب والرغبة في الاجتماع مع النبي ﷺ في جنة الفردوس. والمتمعن في الأبيات أو الناظر فيها نظرة فاحصة متأنية يجد أن الأبيات جاءت مصاغة في قوالب متنوعة، وجعل متباينة بين الاستفهام الذى يتلوه خبر، ونداء

يتلوه رجاء، وخبر يعقبه تلهف وحسرة ثم تجدد التمنى والخبر مع النداء، ثم الخبر الذى يأتى بعده التمنى، ثم الاستفهام الذى يعقبه التمنى، ثم نداء وخبر، ونداء مع الرجاء. وهكذا لم يخلص بيت من أبيات القصيدة لنوع واحد من أنواع الأسلوب الخبرى أو الإنشائى، إلا إن كان هذا البيت قد جاء تكملة لمعنى، وذلك لم يقع ولم نره إلا فى الأبيات الأخيرة من القصيدة، وانعدام الاستقرار على نوع واحد من الأسلوب يكون انعكاساً لقلق النفس، واضطراب المشاعر، وتأججها فى صدر صاحبها، بيد أن الجمل فى الأبيات الأخيرة من القصيدة جاءت طويلة، وقّل الرتم السريع فيها، وذلك لأن الشاعر حين بلغ هذه الأبيات كانت نفسه قد هدأت ورجاؤه انقطع، وتأكد، ووثق أنه لا أمل فى الاجتماع ورؤية الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلا فى الدار الآخرة وقد تلونت الأبيات بصور من الخيال المصبوغ بالعاطفة الآسفة الحزينة التى غطت جلّ كلمات حسن، فعينه لا تنام، فكأنما اكتحلت بكحل الأرمد، والشاعر لا يقصد مجرد الاكتحال، إنما يعنى لازمه، وهو رمد العين الموجه والذى يصحبه الكحل المحرق، مما أدى إلى تسهيدته وحرمانه النوم أسى وجزعاً. وجاءت بعض الصور ذات لون مشرق مثل "يا خير من وطئ الحصى" وقوله: "ولدت محصنة بسعد الأسعد" قوله: "نوراً أضاء على البرية كلها"، والأول والثانى كناية والثالث تشبيه مرشح، وجاءت تلك الصور فى حيز الإحساس بفقدانها إذ كانت من صفات الرسول عليه السلام الذى انتقل إلى الرفيق الأعلى، فكانت فى إشرافها مع الإحساس بفقدانها عاملاً من العوامل البليغة الأسى الزائد فى الترويع، وعلى هذا قد بدا أن الأبيات غطتها مشاعر حسان بن ثابت تلك المشاعر الحزينة القلقة ونفسيته المضطربة، ولاغرو لدينا فإن الفقيه العظيم محمد صلى الله عليه وسلم صفاته وسماته، وخلاله، وخصاله، وخلقه، وعظمته، أكبر من الأبيات، وأجل من كل وصف، وقد كان حسان فى مستوى عالٍ رفيع، حيث اكتفى من خلاله وصفاته عليه السلام بالمزايا الكلية الجامعة من أمثال قوله: "يا خير من

وطئ الحصى " محصنة بسعد السعود " نوراً أضاء على البرية كلها"، ثم يعود مصوراً آلام نفسه دون التصريح بشئ من هذه الآلام، وإنما ترك لقارئ الأبيات استخراج ما في مكنونها، وما تحمله بين ثناياها وطيبتها.

لذا كانت هذه الأبيات كما يقول النقاد وعلماء الأدب من خير وأحسن وأفضل ما قاله الشعراء في "فن الرثاء" لأن الشعر ترجمة لما في الفؤاد، وتصوير للأحاسيس، ولا يقلل من شأن الأبيات وقيمتها الفنية حديث الشاعر عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - بأنه "بكر آمنة المبارك بكرها" فليس من مزياه عليه السلام أنه بكر آمنة لأن آمنة لم تلد سِوَاهُ عليه السلام حتى يوصف وليدها العظيم بأنه "بكر" ل يتميز عن بقية إخوته، وذلك على ما في التركيب ذاته من كلمات تتكرر حروفها فتشعرك بالثقل في نطقها^(١).

قال أبو أحمد بن جحش في الهجرة:

لَمَّا رَأَتْ نِزْيَ أُمِّ أَحْمَدَ غَادِيَا	بذمة من أخشى بذنب وأرهب ^(٢)
تَقُولُ: فَإِذَا كُنْتَ لَا بَدَّ فَاعِلَا	فَيَمَّمُ الْبُلْدَانَ وَلَتَنَّا يَثْرِب
فَقُلْتُ لَهَا: بَلْ يَثْرِبُ الْيَوْمَ وَجْهَنَا	وَمَا يَشْأُ الرَّحْمَنُ فَالْعَبْدُ يَرْكَبُ
إِلَى اللَّهِ وَجْهِي وَالرَّسُولُ وَمَنْ يَقُمْ	إِلَى اللَّهِ يَوْمًا وَجْهَهُ لَا يُخَيَّبُ
فَكَمْ قَدْ تَرَكْنَا مِنْ حَمِيمٍ مَنَّا صَح	وَنَاصِحَةٍ تَبْكِي بِدَمْعٍ وَتَنْدَبُ
تَرَى أَنَّ وَتَرَا تَأِينَا عَنْ بِلَادِنَا	وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ الرِّغَائِبَ تُطَلَّبُ
دَعَوْتُ بَنِي غَنَمٍ لِحَقْنِ دِمَائِهِمْ	وَلِلْحَقِّ لَمَّا لَاحَ لِلنَّاسِ مُلْجَبُ
أَجَابُوا بِحَمْدِ اللَّهِ لَمَّا دَعَاهُمْ	إِلَى الْحَقِّ دَاعِ النِّجَاةُ فَأَوْعَبُوا

(١) روى جديدة في نصوص قديمة للأستاذ المرحوم عبد السلام عبد الحفيظ، مطبعة الفجر الجديد ص ١٠٨-١٤٠١ هـ ١٩٨١ م بتصرف.

(٢) روى جديدة في نصوص قديمة أ. د/ عبد السلام عبد الحفيظ، عميد كلية اللغة العربية الأسبق - يرحمه الله - ص ٩٠، ٩١ مطبعة الفجر الجديد بالقاهرة سنة ١٤٠١ هـ سنة ١٩٨١ م.

وَكُنَّا وَأَصْحَابًا لَنَا فَارْقُوا الْهَدْيَ
كَفَوَجَيْنَ: أَمَّا مِنْهُمْ فَمَوْفَقٌ
طَفَّوْا وَتَمَنَّوْا كَذِبَةً وَأَزَلَّهُمْ
وَرُغْنًا إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
نَمَتْ بِأَرْحَامٍ إِلَيْهِمْ قَرِيبَةً
فَأَيُّ ابْنٍ أُخْتُ بَعْدُنَا بِأَمْتِكُمْ
سَتَعْلَمُ يَوْمًا أَيْنَا - إِذَا تَزَايَلُوا
أَعَانُوا عَلَيْنَا بِالسَّلَاحِ وَأَجْلَبُوا
عَلَى الْحَقِّ مَهْدِيٌّ، وَفَوْجٌ مُعَذِّبٌ
عَنِ الْحَقِّ إِيْلَيْسُ فَخَابُوا وَخِيَّبُوا
فَطَابَ وَلَا فَالْحَقُّ مِنَّا وَطِيبُوا
وَلَا قَرَبَ بِالْأَرْحَامِ إِذَا لَا تَقْرُبُ
وَأَيُّ صَهْرٍ بَعْدَ صَهْرِي تَرْقُبُ
وَزِيلَ أَمْرُ النَّاسِ - لِلْحَقِّ أَصُوبُ

الدراسة والتحليل:

"أم أحمد" زوجة الشاعر: غادياً: عائداً إلى بيته، الذمة: العهد، يمم: قصد واتجه. النأي: البعد. وجهنا: اتجاهاً. الحميم: الصديق والصاحب يقول تعالى: "فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" تندب: تبكى - الخلائق والصفات، الوتر: جاء هنا بمعنى الظلم وانتقاص الحق - والرغائب: جمع رغبة وهي العطية. بنو غنم: أهل الشاعر وعشيرته. الملحّب: واللاحب: الطريق المستقيم الواضح - أوعبوا: خرجوا كلهم لم يبق منهم أحد - أجلبوا - اجتمعوا وتألّبوا.

المعنى الإجمالي:

يتحدث الشاعر في الأبيات سالفة الذكر عن هجرته - رضى الله عنه - من مكة إلى المدينة، ذاكراً موقفه منها، وإصراره عليها مبيناً ما يتغياها من الهجرة، وموقف الشاعر من الذين عذبوه في مكة ونكّلوا به وبإخوانه المسلمين، فيبدأ الشاعر بحوار يدور بينه وبين زوجته يصور فيه تصميمه على الهجرة إلى المدينة المنورة، صلى الله وسلم على ساكنها. وتراه زوجته مصراً على رأيه معاهداً ربه الذي يتخوف أن يلقاه آثماً، أو أن يجنس معه بعهد، ولكن زوجته تحاوره وتعانده واقفة في وجه هجرته إلى المدينة طالبة منه أن يتجه بها إلى بلد آخر من البلدان خلاف المدينة فيجيبها المهاجر

المسلم (أبو أحمد) في حزم وعزم إن يثرب هي وجهتنا وإرادة الله توجهنها إليها ولا بد من الهجرة. فما يشاؤه الله عز وجل لا بد للعبد من تنفيذه، وأن هجرته إلى يثرب توجيه من الله سبحانه وبهجرته إليها يكون قد ولى وجهه إلى الله ورسوله والله لا يخيب من قصده ولجأ إليه، ثم يذكر الشاعر أنه قد ترك بهجرته في مكة كثيراً من الخلان والأحاب المتعاونين على النصيحة، وكذلك الصديقات المخلصات اللاتي يبيكين بدمعهن فراقهم، ويفتقدن في غيابهم مزاياهم وخلقهم فيندبنها آسفات عليها ويرى هؤلاء وأولئك أن ترك بلادنا ظلم لنا ونحن نرى الخير كل الخير في هجرتنا، ثم يقص الشاعر علينا أنه قد دعا أهله للهجرة حقناً لدمائهم، واستجابة لدعوة الحق وتصديقاً لرسوله عليه السلام وجميعاً بحمد الله استجابوا لدعوته وهي دعوة إلى الحق والنجاة وخرج الجميع مهاجرين في سبيل الله لم يتخلف منهم أحد. وأن المسلمين كانوا ورفقاء عيشهم من المشركين الذين لم يهتدوا بهدى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وأعانوا على المسلمين، وتآلبوا عليهم، وكادوا لهم، وشهروا في وجههم ووجه الدعوة كل سلاح، وقعدوا لها كل مرصد، فهؤلاء كانوا فريقين، فريق هداه الله إلى الحق فريح، والآخر ضلّ الطريق فعذب وباء بالخسران المبين، وأزلفهم إبليس عن الحق إلى الباطل فضلّ سعيهم في الحياة الدنيا والآخرة. أما الفريق الرابع وهم المهاجرون المسلمون فقد استجابوا لله ولرسوله، فظهرت قلوبهم، وطابت نفوسهم، وصفت أرواحهم لأنهم آمنوا بالله وصدقوا برسوله. ثم يذكر الشاعر أن المسلمين تربطهم بالمشركين وشائج وأمشاج، من صلات رحم وقرابة، بيد أنه لا وزن لهذه الأرحام وتلك القرابة بعد أن قطع أواصرها المشركون بأعمالهم العدوانية على المسلمين، وسيعلم المشركون بعد فراق المسلمين لهم بهجرتهم إلى المدينة أي الفريقين أكثر إصابة للحق، وأيها أهدى سبيلاً.

والمتمعن في أبيات الشاعر يرى الأحاسيس متضاربة من الألم والأمل في نفوس مؤمنة يكتنفها الإيمان، ويوجهها التوحيد ويضع لها الضوابط حتى لا يقودها الانفعال إلى فحش القول وسفاسف الأمور، وكانت الروح الإيمانية هي المسيطرة

على نفسية الشاعر وكلماته أيضاً. وقد بدا إصراره على الهجرة في مواجهة زوجته ورده الحاسم عليها وهو "بل يثرب اليوم وجهتنا"، وكانت بغية الشاعر حمل زوجته على الهجرة معه مبنياً لها الأسباب الداعية إلى ذلك، وهى أن الهجرة إرادة الله سبحانه، وعلى المؤمن أن ينفذها فيقول "ما يشاء الله فالعبد يركب" كما وضع لها الغاية من الهجرة، وأنها توجه إلى الله ورسوله وذلك فيه الفلاح الذى لا ريب فيه فيقول "فمن يقيم إلى الله يوماً وجهه لا يخيب" والهجرة لديه إجابة لداع ربانى، وليست وسيلة للنجاة والهرب، وأنه فى سبيلها ضحّى بترك أصدقائه المخلصين، وجارات حانيات عليه، كما أنه ترك مسقط رأسه، ومدرج صباه فإن له رأياً يخصه مخالفاً آراء أصحابه الذين يرون أن ترك الوطن ظلم يحيق بهم، بيد أنه يطلب ما هو أعلى وأثمن من الوطن والأصدقاء والجارات، وهو الثواب العظيم من الله عز وجل. ويريك الشاعر أنه هاجر مع أهله جميعاً، حيث إنهم استجابوا لدعوته، ولكنه يذكر أن دعوته لهم تضمنت إغراءً دنيوياً بجانب الإغراء الدينى، فالهجرة لديهم "حقناً لدمائهم" و"للحق الذى بدا طريقه واضحاً". وفى الحديث عن أسباب الهجرة نرى الشاعر يوازن بين المسلمين والمشركين فى اتزان فكانوا معاً أصحاباً، بيد أن المشركين فارقوا الهدى وأعانوا على المسلمين، لأن المسلمين هدوا إلى الحق واتبعوا قول النبى محمد ﷺ فطابت نفوسهم، وطهرت قلوبهم، وأما المشركون، فقد اتبعوا إبليس الذى أرلّفهم عن الحق فخسروا الدنيا والآخرة، وبذلك تفرق الجمعان فراقاً لا لقاء بعده، فلا يمكن أن يلتقى الكفر بالإيمان، حتى وإن كانت الأرحام تصل بينهم.

وتعد هذه القصيدة وثيقة من الوثائق التاريخية والنفسية أيضاً ودراسة القصيدة نستشف من خلالها أحوال المسلمين التاركين لبلدهم "مكة" مضحّين بأموالهم، وعلاقتهم الشخصية محددين العلاقة بمن وقف فى وجه دعوتهم وبمن نكلوا بهم وعذبوهم. كما يبدو لنا من خلال الدراسة للقصيدة اختلاف أحوال المهاجرين. فمنهم من كانت هجرته خالصة لوجه الله سبحانه دون نظر إلى غرض دنيوى، ومنهم من كانت هجرته بغية حقن دمه مع الاستجابة إلى داعى الحق مثل "آل

غنىم" ومنهم من تباطأ فى الهجرة. "أم أحمد" التى استجابت لإصرار زوجها، ولذلك قالت له "أما كنت لابد فاعلاً فيمم البلدان ولتأثير" ، وكان هدفها من ذلك خشيتها أن تمتد يد القرشيين إليهم بالتعذيب والتنكيل فى المدينة أيضاً وبذلك تكون غربة وعذاباً، أما هجرتها إلى بلد غير المدينة، ففيه عذاب الغربة فقط، وتجنب أذى المشركين، يضاف إلى ذلك أن بعض القرشيين كان منهم الحميم الرفيعة، فلذلك نذبت روح الشاعر فرقتهم وأن من المسلمين غير عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أعلنوا عن اعتزامهم الهجرة وعرفهم الناس قبلها مثل "أبو أحمد" ، وأهله وأن المسلمين حين هاجروا صادفوا ألواناً من القسوة والعنت من المشركين لغير جرم اقترفوه، أو ذنب ارتكبهوه. وأنه لم ينبج من العذاب أحد ولذلك هاجروا غير أسفين على ترك أصهارهم وأرحامهم. والقصيدة جاءت غنية بالمعاني الإسلامية، لأنها من وحى حدث إسلامى عظيم، ومن فيض نفس مؤمنة وثيقة الإيمان بالله ورسوله حيث الحفاظ على عهد الله، وتنفيذ إرادته وإجابة لداعى الحق والرجوع إلى قول الرسول - ﷺ - وطيب ولاه الحق وإقامة الوجه لله ورسوله والרגائب التى عند الله عز وجل، كل هذه المعانى معاني إسلامية، استوحاها الشاعر من القرآن الكريم، والتعاليم النبوية وكذلك المعانى الأخرى التى تبدو وصفاً للمشركين من إعانتهم على المسلمين بالسلاح، وتركهم الحق والخير والهدى وطغيانهم واتباعهم إبليس، كل ذلك من وحى الصراع مع الشرك وأهله - وفى هذا دليل حاسم على أن الشعر الإسلامى تأثر كثيراً بتعاليم الإسلام السامقة، وروحه العالية، وخاصة لدى الشعراء الذى غدوا بتعاليم الإسلام وعاشوا أحداثه.

رثاء الرسول ﷺ لحسان بن ثابت

مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفَّو الرُّسُومَ وَتَهَمَّدَ
بِهَا مِنْبِرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ
وَرَبِيعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدُ
مِنْ اللَّهِ نُورٌ يَسْتَضَاءُ وَيَوْقُدُ
أَتَاهَا الْبَلَى فَالْآيَ مِنْهَا تَجْدُدُ
وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحَدُ
عُيُونٌ وَمِثْلَاهَا مِنَ الْجَنِّ تُسْعَدُ
لَهَا مُحْصِيًّا نَفْسِي فَنَفْسِي تَبْلُدُ
فَظَلَّتْ لَأَلَاءِ الرَّسُولِ تُعَدِّدُ
وَلَكِنْ لِنَفْسِي بَعْدُ مَا قَدْ تَوَجَّدُ
عَلَى طَلْلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ
ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدَ الْمَسْدَدُ
عَلَيْهِ وَقَدْ غَادَتْ بِذَلِكَ أَسْعَدُ
وَقَدْ وَهَنْتُ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
وَمَنْ قَدْ بَكَتُهُ الرُّضَى فَالنَّاسُ

بَطِيئَةٌ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ
وَلَا تَنْمَحَى الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حَرَمَةٍ
وَوَاضِحٌ أَثَارٌ وَيَاقَى مَعَالِمُ
بِهَا حُجَرَاتُ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطُهَا
مَعَالِمُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيُهَا
عَرِفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدُهُ
ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَاسْعَدْتُ
يُذَكِّرُنِ آلَاءَ الرَّسُولِ وَمَا أَرَى
مُفَجَّعَةً قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحْمَدُ
وَمَا بَلَغْتَ مِنْ كُلِّ أَمْرِ عَشِيرَةٍ
أَطَالَتْ وَقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنُ جَهْدَهَا
فَبُورِكَتِ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتِ
تَهِيلُ عَلَيْهِ التُّرْبُ أَيْدٍ وَأُعَيْنُ
وَرَا حُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيَّهُمْ
يَبْكُونَ مِنْ تَبْكِي السَّمَاوَاتِ يَوْمَهُ

وهل عدلت يوماً رزية هالك
تقطع فيهم منزل الوحي عنهم
يدل على الرحمن من يقتدى به
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا
عفو عن الزلات يقبل عذرهم
وإن تاب أمر لم يقوموا بحمده
عزیز عليهم لا يثنى جناحه
فبيناهم فى نعمة الله بينهم
فبيناهم فى ذلك النور قد غدا
فأصبح محموداً إلى الله راجعاً
وأمت بقاع الحوم وحشا بقاعها
قفاراً سوى معمورة للحد ضاقها
ومسجده فالموحشات لفقده
وبالجمرة الكبرى له ثم أو حشت
فبكى رسول الله يا عين عبرة
ومالك لا تبكين ذا النعمة التى
فجودى عليه بالدموع وأعولى
وما فقد الماضون مثل محمد
أعف وأوفى ذمة بعد ذمة
وأبذل منه للطريف وتالد
وأكرم حيا فى البيوت إذا انتمى

رزية يوم مات فيه محمد
وقد كان ذا نور يغور وينجد
وينقذ من هول الخزايا ويرشد
معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
فمن عنده تيسير ما يتشدد
إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
دليل به نهج الطريقة يقصد
إلى نورهم سهم من الموت مقصد
يبكيه جفن الرسائل ويحمد
لغيبه ما كانت من الوحي تعهد
فقيده يبكيه بلاط وغرقه
خلاء له فيها مقام ومقعد
ديار وعرصات وربيع ومولد
ولا أعرفنك الدهر دمك يجمد
على الناس منها سابغ يتغمد
لفقد الذى لا مثله الدهر يوجد
ولا مثله حتى القيامة يفقد
فأقرب منه نائلاً لا ينكد
إذا ضن معطاء بما كان يتلد
وأكرم جداً أبطعياً يسود

وأمنع ذروات وأثبت فى العلا
وأثبت فرعاً فى الفروع ومنبتا
تناهت وحياة المسلمين بكفه
أقول ولا يلقى لقولى عائب
مع المصطفى أرجو بذاك جواره
دعائم غر شاهقات تُشيدُ
وعوداً غداة المزن والعود أغيد
فلا العلم محبوس ولا الرأى يفند
من الناس إلا عازب النقل مبعد
وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

قال عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - فى " وقعة مؤتة " ^(١) لما تولى قيادة الجيش بعد استشهاد القائدين قبله:

يا نفس إلا تقتلى تموتى
وما تمنيت فقد أعطيت
أو تبتلى فطالما عوفيت
أقسمت يا نفس لتنزلنه
إذا أجنب الناس وشدوا الرنة
وطالما كنت مطمئنة
هذا حمام ^(٢) الموت قد صليت
أن تفعلنى فعلهما هديت
وإن تأخرت فقد شقيت
طائفة أو فلتكـرهنه
مالى أراك تكـرهين الجنة
هل أنت إلا نطفة من شنة

(١) فى جمادى الأولى سنة ثمان كانت غزوة مؤتة واستعمل النبى عليه السلام على الجيش: زيد بن حارثة: وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس وكان عدد المقاتلين فى وقعة [مؤتة] ثلاثة آلاف مقاتل.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٣٧٣، والروض الأنف للسهيلى ج ٤ ص ٧٢، ٧٣ تقديم طه عبد الرؤوف سعد مطبوعات عباس عبد السلام شقرون.

١- الحمام: بكسر الحاء: قضاء الموت وقدره. صليت قاسيت حرارته.

٢- فعلهما: يعنى فعل القائد بن قبله: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب.

لتنزلنه: الضمير للموت، وكذلك فى لتكرهنه الضمير للموت وليست الهاء لسكت.

أجنب الناس: تجمعوا. شدوا. الرنة: علت صيحاتهم القوية.

المنطقة: قطرة الماء. الشنة: القربة المهتكة الصغيرة.

الدراسة والتحليل :

خرج الجيش الإسلامى قاصداً "مؤتة" فى جمادى الأولى سنة ثمانٍ للهجرة، واستعمل عليهم "زيد بن حارثة"، وقال: إن أصيب "زيد" فجعفر بن أبى طالب على الناس، فإن أصيب "جعفر" "فعبد الله بن رواحة" على الناس، فتجهز الناس ثم تهبأوا للخروج وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله - ﷺ - وسلموا عليهم. فلما ودع عبد الله بن رواحة مَنْ ودّع من أمراء رسول الله - ﷺ - بكى. فقالوا ما يبكيك يا بن رواحة؟ فقال: أما والله ما بى حب الدنيا ولا صباية بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾^(١) فلست أدري كيف لى بالصدر بعد الورود، فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. فقال عبد الله بن رواحة:

لكننى أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حرّان مجهزة	بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى	أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم تهبأ القوم للخروج، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله - ﷺ - فودعه، ثم قال:

فثبت الله ما أتاك من حسن	تثبت موسى ونصراً كالذى نصروا ^(٢)
إنى تفرست فيك الخير نافلة	الله يعلم أنى ثابت البصر
أنت الرسول فمن يحرم نوافله	والوجه منه فقد أزرى به القدر

(١) سورة مريم، آية رقم (٧١).

(٢) الروض الأنف للسهيلى ج ٤ ص ٧١ تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد.

١ - ضربة ذات فرغ: واسمة يسيل دمها.

٢ - الحران: العطشان، والمراد هنا: العطشان إلى الدم أى معطشة للقتال والانتقام من أعداء الله، مجهزة: قاتلة، تنفذ: تصل إلى الشئ وتحالطه.

٣ - الحدث: القبر. قال تعالى "ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون".

يقول ابن هشام: وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر هذه الأبيات:

أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر^(١)
فثبَّت الله ما آتاك من حسنٍ فى المرسلين ونصراً كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالفت فيك الذى نظروا

يعنى المشركين وهذه الأبيات فى قصيدة له يقول ابن اسحاق: ثم خرج القوم،
وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا ودَّعهم وانصرف، قال عبد الله بن رواحه:

خلف السلام على امرئ ودَّعته فى النخل خير مشيع وخليل^(٢)

ثم مضوا حتى نزلوا "معان" من أرض الشام، فبلغ الناس أن "هرقل" نزل
"مآب"، من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من "لخم، وجذام،
والقين، وبهراء" مائة ألف منهم، عليهم رجل من "بلى" ثم أحد! راشة يقال
له "مالك بن زافلة" فلما بلغ المسلمين أقاموا على "معان" ليلتين يفكرون فى أمرهم،
وقالوا: تكتب إلى رسول الله ﷺ، فخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال،
وقالوا: تكتب إلى رسول الله ﷺ، فخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال،
وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضى له. قال: فشجع الناس عبد الله بن رواحة، وقال: يا
قوم، والله إن التى تكرهون، للتى خرجتم تطلبون "الشهادة" وما نقاتل الناس بعدد
ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به^(٣)، فانطلقوا فإنها هى
إحدى الحسينين إمّا ظهور^(٤)، وإمّا شهادة. قال: فقال الناس: قد والله صدق ابن
رواحه. فمضى الناس، فقال عبد الله بن رواحة:

(١) ذاته ص ٧١.

(٢) ذاته ص ٧١.

(٣) ذاته.

(٤) ذاته.

جلبنا الخيل من أجاب وفرع	تفر من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصوان سبتاً	أذل كأن صفحته أديم
أقامت ليلتين على معانٍ	فأعقب بعد فترتها جموم
فرحنا والجياذ مسمومات	تنفس فى مناخرها السموم
فلا وأبى مآب لنأتينها	وإن كانت بها عرب وروم
فعبأنا أغنتها فجاءت	عوابس والغبار لها يريم
بذى لجب كأن البيض فيه	إذا برزت قوائسها النجوم
فراضية المعيشة طلقتهما	أسنتها فتنكح أو تئيم ^(١)

وفى أثناء سيرة أخذ ابن رواحة يردد من الأشعار ما يؤكد استشرافه وتطلعه للشهادة، حتى لُكِّعَ ربيبه "زيد بن الأرقم" فخفقه ابن رواحة بالدرة، وقال له: ما عليك يا كلع أن يرزقنى الله شهادة، وترجع بين شعبتى الرحل! حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع "هرقل" من الروم والعرب، بقرية من قرى "البلقاء" يقال لها.. "مشارف"، ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها "مؤتة" فالتقى الناس عندها فتعباً لها المسلمون! فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بنى عذرة يقال له "قطبة بن قتادة"، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له "عباية بن مالك"، ويقول ابن هشام "عبادة بن مالك". والتقى الجمعان، وحمل الوطيس، وسكتت الألسنة، ونطقت الأسمنة، وقامت الأسياف لتخطب فوق أعناق الرجال ويقدم المسلمون للقاء عدوهم فى بسالة وشجاعة نادرة ويقود المعركة "زيد بن حارثة" يحمل راية رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فيستشهد بعد بطولات خارقة، ويتسلم الراية "جعفر" فيلقى الله شهيداً، بعد أن هاج فى صفوف المشركين كما يهبج الجمل الأورق ثم يتسلم الراية عبد الله بن رواحة وتتردد نفسه الإقدام

(١) الظهور - النصر - الحسينية. إما الشهادة أو النصر.

خشية الموت فيقول مخاطباً نفسه ومشجعاً غيره في الأرجوزتين سألقتى الذكر وفي الأولى يشرع ابن رواحة في تثبيت نفسه وتذكيرها بمصيرها المحتوم، وأن الأمل لدى الله عز وجل، ويذكرها بفعل القائدين قبله "زيد" و"جعفر"، فإن هي نَجَتْ من القتل في المعركة، فإن الموت ينتظرها، ويذكرها بأنها كثيراً ما تمتت الشهادة في سبيل الله وها هي ذا فلم تكرهين اللقاء، وقد تمنيت ذلك من قبل وقد سبقك في الميدان قائدان عظيمان أبليا بلاء حسناً حتى استشهدا، فإن فعلت مثل ما فعلوا، فقد هديت وإن تأخرت عن صاحبك فقد شقيت. وفي الأرجوزة الثانية يحس ابن رواحة أن نفسه لا تزال مترددة قلقاً، فإذا به يقسم عليها أنه لا بد لها من النزول إلى ميدان الموت مكرهه، أو طائعة حيث إن الناس قد تجمعوا، وعلت أصوات التضحية والفداء. ثم يستنكر منها كراهيتها للموت، علماً بأنه السبيل إلى الجنة، وكثيراً ما اطمأنت إليه وإلى الجنة التي ستفوز بها من ورائه، ثم يهون عليها الموت مصوراً نفسه ذلك التصوير الرائق الجميل، وهو أنها ليست أكثر من قطرة ماء في دلو صغير متهتك قديم، لا يضيرها أن تسقط منه.

وفي هاتين الأرجوزتين لون من الحوار الذاتي بين الشاعر ونفسه، يستحثها فيه على الإقدام على عملٍ هو من أقسى الأعمال إلى النفس البشرية، وهو الإقبال على الموت في ميدان يتفوق العدو فيه عدداً وعتاداً، بيد أن الشاعر خرج من بيته حريصاً على نيل الشهادة فحسب، فلم يهتزت نفسه ووسوست إليه مزيئة لها الحياة؛ أنكر عليها ذلك فأخذ يخاطبها وكأنها نفس غريبة عنه أو هي نفس غير التي عرفها، فجردها عنه، ولم يضيفها إلى ياء المتكلم، ويقول "نفسى"، ثم يأخذ الشاعر في مخاطبتها وتذكيرها بأن الموت آتٍ لا محالة، فيقول لها: "إلا تقتلى تموتى" مع استخدام أسلوب الشرط المنفى بلا، فإن كانت تخشى القتل، فإن الموت يترصدها، وإن طالت أو قصرت، فإنه ينتظرها، ثم يبصرها بالطريق؛ فيقول لها "هذا حمام الموت قد صليت" وهنا ينسى القتل، ويبرز الموت وحده، ليعرفها أنه لا فرق بين القتل

والموت. كما أن الشاعر يذكرها بما تمنته بقوله "وما تمنيت فقد أعطيت" وما لا ريب فيها أنها كانت متمنية الشهادة في سبيل الله فهو يذكرها بذلك لتهداً، وتقبل عليها في اطمئنان وما عليها إلا أن تفعل فعل صاحبها "زيد وجعفر" "إن تفعل فعلهما هديت" يعنى هديتى إلى الشهادة المرجوة والمنتظرة، حيث إنها السبيل للفوز بالرضوان والتنعم بفرايس الجنان. ثم يخاطب نفسه قائلاً لها، مفترضاً أنها إن نجت من الموت ستصاب إصابة تقعدها عن النشاط والعمل، فلا تجزعى فكثيراً ما عشت في عافية، فلا ضير إذا بليت، ويحذرها من التأخر من فعل الصالحين قبلها، لأن ذلك فيه شقاؤها دنيا وأخرى، ثم نرى الشاعر يحاول بكل وسيلة أن يرد نفسه إلى الموت عن طريق الحوار الهادئ في تعقل وأناة، فلما وجد النفس لا تزال متوجسة وسبيل المنطق غير مقنع لها أخذ في إكراه نفسه على النزول إلى ميدان الشهادة مقسماً عليها ومؤكداً، وأمرأ لها أنه لا بد من النزول إلى ساحة الموت راضية مرضية، وإلا ستكره على الإقدام والنزول إلى ميدان النزال، حيث لا مجال للتردد، فيقول: "إذا أجلب الناس وشدوا الرنة" ثم يعاتب ابن رواحة نفسه، فيخاطبها قائلاً "مالى أراكى تكرهين الجنة" وهو سؤال تعجبى إنكارى فيه غرابة التردد على نفسه "طالما قد كنت مطمئنة"، ثم يهون عليها الموت بقوله "إنك لست أكثر من نقطة ماء في قطعة جلد متهرئة وممزقة وليس صعباً أن تنزل قطرة الماء من قرية ممزقة. ولتفاوت الانفعال النفسى لدى الشاعر فى الأرجوزتين، ظهر أيضاً التعاون فيهما، هدوء وترابط فكري فنرى الفكر فى الأولى هادئاً ومنطقياً ومتسلسلاً ومتربطاً، كما ظهر التفریع والافتراض فى الأفكار وبدت رؤية الشاعر واضحة ومحددة فى الغايات، كما بدا الهدوء فى الألفاظ والتراكيب والنغم والقافية، وجاءت العبارات خلواً من المجاز، عدا قوله: "هذا حمام الموت قد صليت"، التى لم تهدف إلى أكثر من تصوير الإحساس بلذع الموت فى حركة الميدان، وفيما عدا ذلك كانت لغة الحقيقة هى المسيطرة على الأرجوزة أما فى الأرجوزة الثانية، فقد كان انفعال الشاعر أشد

وثورته أوضح، ولذا بدا الفكر متسماً بالعنف والثورة على النفس والتأنيب لها، كما نرى أن صخب العبارة بدا على الأرجوزة. وخاصة في قافيتها المنتهية بالهاء الساكنة المسبوقة بالنون المشددة "مالى أراك تكرهين الجنة" و"هل أنت إلا نطفة في شنة" وطائفة أو فلتكرهه، كما لجأ الشاعر صاحب النفس الثائرة إلى الصورة المادية للتعبير بها عن المعانى النفسية، وذلك في قوله "شدو الرثة" للدلالة على قوة الحماس، الذى بدا فى أصوات المقاتلين، وقوله "هل أنت إلا نطفة فى شنة" للدلالة بها على أنها هيئة لديه، وأمر طبعى أن نقول: إن الشاعر قد صدر فى أرجوزتيه من نبع إسلامى عميق وثابت، يؤمن بقضاء الله وقدره متأسياً بالصحابة الأجلاء من قبله. لذا يجد الموت هداية وخيراً، ونجاحاً وفلاحاً فى الدنيا والآخرة، وفى البقاء شقاء وعاراً، وذلاًّ وشناراً، وفى تردد نفسه كراهية للجنة. ولا غرو فى أن يجيئ هذا الكلام، وتصدر تلك المعانى الخالدة من رجل كابن رواحة، الذى عبّر بشعور دينى عميق وهو فى ميدان الشهادة والبذل والجود بالنفس فى سبيل العقيدة.

وهكذا كان ابن رواحة والصّحابة المضمّون فى سيل الإسلام بذلاًّ، وسخاء بالنفس، والمال، مما يدل على أن لسان حالهم جميعاً، قول الشاعر المسلم.

ولستُ أبالى حين أُقتلُ مسلماً
على أى جنبٍ كان فى الله مصرعى

شهدت بإذن الله

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ، أَنَّ مُحَمَّدًا
وَأَنَّ أَبَا يَحْيَى وَيَحْيَى كُلَّيْهِمَا
وَأَنَّ التِّي بِالْجُزْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ
وَأَنَّ الَّذِي عَادَى الْيَهُودَ ابْنُ مَرْيَمَ
وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ يَعْذِلُونَهُ
رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مِنْ عَلٍ
لَهُ عَمَلٌ فِي دِينِهِ مُتَقَبَّلٌ
وَمَنْ دَانَهَا فَلٌ مِنَ الْخَيْرِ مَعَزِلٌ
رَسُولُ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُرْسَلٌ
يَقُومُ بِدِينِ اللَّهِ فِيهِمْ، فَيَعْدِلُ^(١)

(١) الديوان ص ١٨٦.

الجدع من الوادي: حيث تجزعه يعني تقطعه. نخلة. موضع بالحجاز بين مكة والطائف. دانها. يعني دان بها وعندها، وأراد بها العزى وهو صنم كان لقريش وبنى كنانة. فل من الخير. خال من الخير. عادى اليهود: أى عاداه اليهود. أخو الأحقاف. هو النبي هو عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. وبعد إنشادها قال النبي ﷺ: أنا أشهد معك.

"حصان رزان" (١)

حَصَانُ رُزَانُ مَا تُزَنُّ بِرِيَّةَ
حَلِيلَةٍ خَيْرِ النَّاسِ دِينًا وَمَنْصَبًا
عَقِيلَةً حَى مِنْ لُؤَى بْنِ غَالِبٍ
مُهَذَّبَةً قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ خِيَمَهَا
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قَلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ
وَأَنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَائِطٍ
فَكَيْفَ وَوَدَّى مَا حَيَّيْتُ وَتُصَرِّتِي
لَهُ رَتَبُ عَالٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ
رَأَيْتَكَ وَلِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ حُرَّةً
وَتُصْبِحُ غَرْنَى مِنْ لُؤَى بْنِ غَالِبٍ
نَبَى الْهُدَى وَالْمَكْرَمَاتِ الْفَوَاضِلِ
كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلٍ
وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلٍ
فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَى أَنَا مِلِّي
بِهَا الدَّهْرُ بَلْ قَوْلُ امْرِئِي بِي مَا حِلٍ
لَا لِي نَبَى اللَّهِ زَيْنَ الْمَحَافِلِ
تَقَاصَرُ عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ
مِنْ الْمُحَصَّنَاتِ غَيْرَ ذَاتِ غَوَائِلِ

(١) الديوان ص ١٨٨ .

الحصان: العفيفة. الرزان: ذات الثبات والوقار والعفاف. تزَنُّ: تُتَّهَمُ غرني. جائعة وخالية. الغوافل: جمع غافلة. يعنى لا تخوض فى أعراض الناس. العقيلة: السيدة الكريمة. الخيم: الأصل. لائط: لازق. الماحل. مأخوذ من محل به إلى الأمير. سعى به وكاده، وافترى عليه وتقول شيئاً لم يقله. الرتب. ما أشرف من الأرض، استعارة للمجد والشرف. سورة: وثبة.

ورث الضلالة عن أبيه

لقد ورث الضلالة عن أبيه	أبى، يومَ فاقه الرسول ^(١)
أجئتَ محمداً عظماً رميماً	لتكذبه وأنت به جهول
وقد نالت بنو النجار منكم	أمية، إذ يغوثُ يا عقيلُ
وتبَّ ابنا ربيعة إذ أطاعا	أبا جهلٍ لأمهما الهبولُ

(١) الديوان ص ٢٠٠. دار صادر بيروت لبنان - بدون تاريخ
يغوث: يطلب الغوث، العون والنصرة
تب: هلك. الهبول: الشكل.

الأمر بالمعروف

أَوْصَى أَبُوْنَا مَالِكُ بِوَصَايَةٍ
بِأَنْ أَجْعَلُوا أَمْوَالَكُمْ وَسِيُوفَكُمْ
فَقُلْنَا لَهُ إِذْ قَالَ مَا قَالَ مَرْحَبًا
عَمْرًا وَعَوْفًا إِذْ تَجَهَّزَ غَادِيَا^(١)
لَأَعْرَاضَكُمْ مَا سَلَّمَ اللَّهُ وَاقِيَا
أَمَرْتُ بِمَعْرُوفٍ وَأَوْصَيْتُ كَافِيَا

(١) ذاته ص ٢٦١.
تجهز غادياً: أى حضره الموت.

اعتذار واستعطاف

من كعب لرسول الله (عليه الصلاة والسلام)

والعَفْوُ عند رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَتَفْصِيلُ
أُذُنِبَ، وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلُ
أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ
مِنَ الرَّسُولِ - بِإِذْنِ اللَّهِ - تَنْوِيلُ
فِي كَفِّ ذِي نِقَمَاتٍ قِيلُهُ الْقِيلُ
وَقِيلَ: إِنَّكَ مَسْبُورٌ وَمَسْئُولُ
مِنْ بَطْنِ عَثْرٍ غِيلُ دُونَهُ غِيلُ
لَحْمٌ مِنَ الْقَوْمِ مَعْفُورٌ خَرَاذِيلُ
أَنْ يَتَرَكَ الْقَرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَجْدُولُ
وَلَا تُمَشِي بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلُ
مُطَرَّحُ الْبَزِّ وَالْدَّرْسَانُ مَأْكُولُ
مُهَنْدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْئُولُ
بَطْنُ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا - زُولُوا

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الدِّ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ، وَلَمْ
لَقَدْ أَقَوْمَ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ
لَظَلَّ يَرْعُدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أَتَأَزَّعُهُ
لِذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَّمَهُ
مِنْ خَادِرٍ مِنْ لِيوْثِ الْأَسَدِ مِسْكَنُهُ
يَغْدُو فَيَلْحِمُ ضِرْغَامَيْنِ عَيْشَهُمَا
إِذَا يُسَاوِرُ قَرْنًا لَا يَجِلُّ لَهُ
مِنْهُ تَقَطَّلَ حَمِيرُ الْوَحْشِ ضَامِرَةٌ
وَلَا يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثَقَةٍ
إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
فِي عَصَبَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ

زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسُ وَلَا كُشْفُ
شَمِّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالَ لُبُوسُهُمْ
بَيْضُ سَوَائِغٍ قَدْ شَكَّتْ لَهَا حَلَقُ
يَمْشُونَ مَشَى الْجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ
لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ

عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلُ مَعَاذِلُ
مَنْ نَسَجَ دَاوُدُ فِي الْهَيْجَا سَرَايِلُ
كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ
ضَرَبُ إِذَا عَرَّدَ السُّودَ التَّنَائِيلُ
قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيْعًا إِذَا نِيلُوا
وَمَالَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ

"كعب بن زهير بن أبى سلمى المزنى"

هو كعب بن زهير بن أبى سلمى المزنى، وأمه امرأة من بنى عبد الله بن غطفان يقال لها "كبشة بنت عمار بن عدى بن سحيم" وهى أم سائر أولاد زهير، وهو من المخضرمين ومن فحول الشعراء، وسأله الخطيئة أن يقول شعراً يقدم فيه نفسه، ثم يثنى به بعده، ففعل فقال:

فمن للقوافى شأنها من يحوكها	إذا ما ثوى كعب وفوز جرول
يقول فلا تعيا بشئ يقوله	ون قائلها من يسىء ويعمل
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً	تتحل منها مثل ما يُتَنَخَّل
يثقفها حتى تلين مُتَوْنُها	فيقصر عنها كُلُّ ما يتمثل ^(١)

وخرج كعب وبُجير ابنا زهير بن أبى سلمى إلى رسول الله ﷺ حتى بلغا "أبرق العزاق" وهو ماء لبنى أسد، فقال كعب لبُجير: ألحق الرجل، وأنا مقيم ها هنا، فانظر ما يقول لك: فقدم بجير على رسول الله - عليه الصلاة والسلام - فسمع منه وأسلم وبلغ ذلك كعباً فقال:

ألا أبلغا عنى بجيراً رسالةً على أى شئ - ويب غيرك دلّكاً

(١) الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني ج ١٧ تحقيق على محمد البجاوى بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٨٢ وما بعدها نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٣٨٩ هـ سنة ١٩٧٠ م. تنخل: اصطفى واختار.

فوز الرجل: إذا قضى نجه. شافها: جاء بها شائنة معيبة. جرول: الخطيئة.

على خلق لم تلف أمّا ولا أباً عليه ولم تُدرك عليه أخاً لكاً
سَقَاكَ أبو بكر بكأسٍ رويّة فأنهَلَكَ المأمُون منها وَعَلَّكَ^(١)

فبلغت أبياته هذه الرسول - ﷺ - فأهدر دمه وقال: (من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله) فكتب إليه بجير بهذا الخبر وطلب منه أن يسلم ويقبل إلى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ويقول له: إن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله قبل ﷺ منه، وأسقط ما كان قبل ذلك، فأسلم كعب، وقال القصيدة التي اعتذر فيها لرسول الله - ﷺ - واستهلها بقوله:

بانّت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم عندها لم يحجز مكبول^(٢)

ثم أقبل كعب ودخل المسجد وجلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الأمان. قال ومن أنت؟ قال كعب بن زهير قال أنت الذي يقول: وطلب من أبي بكر أن ينشده الأبيات فأنشده - رضى الله عنه - حتى بلغ إلى قوله:

سَقَاكَ أبو بكر بكأسٍ رويّة فأنهَلَكَ المأمُون منها وَعَلَّكَ

فقال رسول الله - ﷺ -: مأمون والله^(٣). ثم أنشده كعب بن زهير.

بانّت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وأشار النبي عليه السلام إلى الخلق أن يسمعوا شعر كعب بن زهير. وأجازه - ﷺ - على هذه القصيدة وأعطاه عباة جائرة له، وأراد معاوية بن أبي سفيان أن يشتريها منه فتأبى عليه ذلك ثم اشتراها من ورثته بعد موته بثلاثة آلاف درهم، وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام.

(١) ذاته ص ٨٦.

(٢) ذاته ص ٨٧.

لم يحجز مكبول. ويروى [لم يُفد] ويروى "عندها" و"مقيم إثرها".

(٣) ذاته ص ٨٧.

حين أظل الإسلام الجزيرة العربية اعتنق بجير بن زهير الإسلام، ونصح كعب بن زهير بالدخول فيه بيد أن كعباً رفض الانخراط في سلك الإسلام، واتهم بجيراً بأنه معتوه واتهم الرسول عليه السلام بالكذب والافتراء، فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فغضب وأهدر دمه، فاهتزت نفس كعب حين بلغه ذلك، وخارت قواه، وضافت عليه الأرض بما رحبت، وطلب من القبائل حمايته من هذا الخطر الذي يلاحقه في كل مكان، فلم تقبل قبيلة من القبائل أن تحيره، أو تسانده ولم يجد بداً آنذاك من اللجوء إلى رسول الله - عليه الصلاة والسلام -، والتوسل إليه راجياً منه العفو، والصفح، فهو الحليم صاحب الخلق الكريم ثم دخل كعب عليه المسجد متنكراً في صلاة الفجر وسلم عليه - ﷺ - ثم قال له: (لو جاء إليك كعب عائداً لائذاً أتقبل منه)؟ فقال له أقبل: فقال له كعب: بأبى أنت وأمى يا رسول الله أنا كعب بن زهير، ثم أنشده فاهتز لها الرسول - ﷺ - وأعجب بها وخلع عليه برده.

وهو في هذه القصيدة يمدح رسول الله - عليه الصلاة والسلام - مأملاً في عفوهِ عمّا بدر منه، مصوراً ما اعتراه من هم وقلق واضطراب نفسى حيث توعدّه الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأهدر دمه، فالقارئ لأبيات كعب يدرك مدى ما أصابه من هلع وفرع وذعر وخوف، وتحس بالرهبة قد سيطرت عليه تماماً وأحاطت بأقطار نفسه فيحاول أن يستحث النبي - ﷺ - على العفو عنه وأن يتجاوز عمّا بدا منه. وقد رفعه الشاعر في كل خطواته وكل ما كان يصبو إليه، فقد اختار من المؤثرات ما يتناسب مع موقفه ليحقق بذلك هدفه الذى يرجوه وهو العفو من الرسول عليه السلام، وفي خطابه للنبي - عليه الصلاة والسلام - يعمد الشاعر إلى بعض الوسائل الناجحة في تحقيق غرضه حيث ذكر النبي بالقرآن وما فيه من عبر وآيات، ومن بينها الصّفا، والعفو والإعراض عن الجاهلين، والتثبت قبل الاستماع إلى الواشين والكاذبين والفاستقين. واختتم القصيدة بمهارة فائقة، حيث نأى في مدح رسول الله - عليه الصلاة والسلام - عن مدائح الجاهلية، منتقياً من الأوصاف

ما يتناسب وجلال النبوة ومكانة الرسول العظيمة ﷺ كما أنه في مدحته للمهاجرين لم يفته ذكر أروع ما سجله التاريخ لهم من بطولات ووقوفات مع النبي - عليه الصلاة والسلام - تذكر فتشكر فقد ضحوا في سبيل العقيدة بكل غالٍ ومرتحص، امتثالاً لأمره - عليه الصلاة والسلام. قد راعي الشاعر في تنسيق أفكاره مقتضيات الحكمة، وعرضها في تسلسل وإعٍ دقيق. ولذلك تراه يصور موقفه قبل لقائه بالرسول - عليه الصلاة والسلام - وهي مقدمة ضرورية يقتضيها الموقف فقد كان - عليه الصلاة والسلام - غاضباً عليه، فالشاعر في حاجة إلى حديث ملؤه اللطف وإطفاء ثورة الغضب، وتخفيف حدة الانفعال ضده وذلك أضعف الإيمان ثم اتجه إلى الجانب النبوي وخاطبه بخطاب حكيم متزن، وبذلك استطاع الشاعر بمهارته الفنية، وشاعريته القوية، وألفاظه المؤثرة أن يمهّد الطريق لنفسه، ويهيئ الفرصة لسماع دفاعه ويفتح القلوب للتوصل مما نسب إليه، واتّهم به وإلقاء التبعة في ذلك كله على الوشاة، والتّأمين والحاقدين الحاسدين. ثم يعتمد الشاعر إلى استئثار العواطف بتصوير ما يقاسيه من هول الموقف وعظم رهبته بين يدي المصطفى فذلك أوقع في النفس، وأدعى إلى الشفقة. أما المدرع، فقد جعله آخر ما يتوسل به، على الرغم من إجادته له، فقد فطن الشاعر أن التملق المقيت، والتزلف الكاذب الرخيص لا يجدي نفعاً في عهد المثل الأخلاقية، والقيم والمبادئ العالية لذلك ترى الشاعر نأى بعيداً عنه، وإن كان لا بد منه فقد جعله آخر المطاف ونهاية الأغراض، وقد استخدم الشاعر كثرة كاثرة من الصورة البيانية الرائقة مثل: الكناية في قوله: "لا يحل له أن يترك القرن إلا وهو مجدول" وهي كناية من الثبات وعدم الرجوع القهقري وقوله: "منه تظل سباع الجوّ ضامرة" كناية من الثبات وعدم الرجوع القهقري وقوله: "منه تظل سباع الجوّ ضامرة" كناية عن سيطرة الأسد، وعدم قدرة السباع على منافسته في الصيد" وفي قوله: "ولا يزال بواديه أخو ثقة كناية عن ملازمتها له وعدم انفكاكها عنه، ومثل التشبيه في قوله: "إن الرسول لنور يستضاء به"، وكذلك قوله: "يمشون مشى الجمال الزهر" وهي صور رائعة وقوية وسر

جماها وقوتها أن الشاعر استوحاها من البيئة المألوفة له ولمن حوله. بعد ذلك نستطيع القول إن ألفاظ النص فيها نقاء وصفاء ولن ينقص منها، أو يغض من قيمتها ورود بعض الألفاظ التي تتوجك إلى الكشف عن معانيها في المعاجم اللغوية، حيث إنها سمات ذلك العصر، وبخاصة أنه شاعر عاش في الجاهلية وشعر الجاهليين لا يخلو من أمثال هذه الألفاظ، فتكاد تكون قدراً مشتركاً بين جميع الشعراء آنذاك حيث اللغة في مهدها وهم أرباب الفصاحة وأمراء البيان، وبكفى استدلالاً على قوة لغتهم نزول القرآن الكريم بها. وقد جاءت أساليب النص متنوعة ما بين خبر وإنشاء... فالأسلوب الخبرى مثل قوله (أنبئت أن رسول الله أوعدني) وذلك يفيد إظهار الأسى والقلق وقوله إن الرسول لنور يستضاء به وغرضه المدح، ومن الأساليب الإنشائية قوله: (مهلاً هداك الذي أعطاك ناقلة القرآن)، ومعناه الرجاء والدعاء، لأن الأمر من الأدنى إلى الأعلى (رجاء) وهو من الأساليب البيانية الرائعة، وقوله: (لا تأخذني بأقوال الوشاة)، وهو أسلوب نهى خرج إلى معنى الرجاء والتضرع والدعاء. وموسيقى الأبيات تتمثل في الوزن والقافية، فالقصيدة على وزن واحد، وهي منتهية باللام المضمومة وذلك ما يسمى بالموسيقى الخارجية للأبيات وحظ الأبيات جاء موفوراً في الموسيقى الداخلية متمثلاً في بعض المحسنات البديعية مثل المقابلة في قوله:

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

فهى مقابلة رائعة، كما تتمثل الموسيقى الخفية في انتفاء العبارات الملائمة للمعنى، واستخدام الكلمات ذات الإيحاءات العاطفية من مثل قوله (أوعدني) وهى توحى بالتهديد. وقوله (مأمول) وهى تنبئ بتجدد الأمل، وقوله (يرعد) الموحية بالرهبة وقوله (ذى نقمات) وتوحى بالقدره على الانتقام وقوله "من خادر من ليوث الأسد" الموحية بالقوة أيضاً إلى غير ذلك من الكلمات التى يعج بها النص، والتى تغص بالألفاظ والعبارات ذات الإيحاء الرائع الأخاذ - والأبيات تُعدُّ لونا من ألوان الشعر الإسلامى، الذى يمثل حقبة من حقبة الدعوة الإسلامية التى نهض النبى -

ﷺ - فيها بأعباء الدعوة إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه فدخل الناس في دين الله أفواجاً وكفرت طائفة مكابرة معاندة، فاز الذين انخرطوا في سلك الإسلام، ووقف المعاندون يتربصون بالدعوة وصاحبها ويقعدون لها كل مرصد، ويشهرون في وجهها كل سلاح، صادين عن سبيل الله، حقداً وحسداً من عند أنفسهم على الدعوة وصاحبها، وظلوا كذلك، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فدخلت ثلثة منهم الإسلام، وأصرت أخرى على عنادها، وكان شاعرنا واحداً من الذين ناووا الدعوة، وصاحبها بالهجاء والتكذيب، ثم عاد إلى رشده، واستغفر لذنبه، وطلب العفو من الرسول - عليه الصلاة والسلام - فعفا عنه هو ونفر من أمثاله مثل (عبد الله بن الزبيري) وكان من شعراء المشركين، فتحول كفرهم إلى إيمان وهجاؤهم إلى مديح. وهذه الأبيات اقتطفناها من قصيدة (كعب بن زهير) التي تبلغ (ثمانية وخمسين بيتاً)، استهلها بالغزل فيقول:

بانئت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

ثم ينتقل إلى وصف الناقة فيصفها أبدع وصف فيقول:

ولن يُبلغها إلا عذا فرة فيها على الأين إرقالٌ وتبغيل

ثم ينتقل إلى وصف حاله، ثم مدح الرسول وصحابته. وقد اختلف النقاد في هذه القصيدة، فيرى بعضهم أن الشاعر أعد القصيدة قبل أن يبدأ رحلته إلى المدينة، ولقاء النبي - عليه الصلاة والسلام -، ويرى بعض آخر ومنهم "الباجوري" أن الشاعر أنشأ قبل أن يقدم المدينة أبياتاً منها، فلما وصل إلى النبي - ﷺ - وحظى منه بالقبول والعفو، أنشأ هذه القصيدة على وجه آخر غير ما صنع عليه تلك الأبيات ومعنى هذا أن الشاعر ارتجل القصيدة، بيد أن بعض الباحثين يرى أن القصيدة أعدت إعداداً دقيقاً، مستدلين على ذلك بأن كعب بن زهير لم يكن من أهل البديهة والارتجال، بل إنه من شعراء التحضير والتنقيح وتشذيب الشعر وتهذيبه قبل عرضه على الناس، ولا غرو فهو ابن زهير بن أبي سُلمى شاعر الحوليات وقد كان

"كعب" من رواة شعره، كما أنه كان تلميذا له في مرانه ودربته على قول الشعر وقد صقله أبوه "زهير" حتى أجاده وبرع فيه، وورث ذلك عنه.

وأمر ثانٍ، وهو ما في القصيدة من آثار الصنعة والإحكام وانتقاء العبارات، وتخير الألفاظ. كل ذلك لا يتأتى مع الارتجال، ناهيك بتلفظه في الانتقال بين الموضوعات المتباينة، ثم إحكامه في بناء الصور، وإلحاحه على المعنى الواحد أحياناً، وهذا من شأن المحبر المنقح المتأنى في صنعته. ونحن نرى أن منهج "كعب" في الاعتذار متصل بعض الاتصال بمنهج "النابغة الذبياني" في اعتذاره "للنعمان بن المنذر"، وذلك في الاستعطاف وطلب العفو، بيد أن منهج "كعب" في الاعتذار يقوم على وصف حاله، وما قاساه من قلق واضطراب، بعد أن بلغه أن الرسول أهدر دمه، واسترضاء النبي - عليه الصلاة والسلام - وإخلاء قلبه لسماع عذره، والتبرؤ من التهم التي ألصقت به وأنها محض اختلاق من الوشاة ثم وصف ما يعاني من هلع ورعب لدى مثوله بين يدي الرسول - عليه الصلاة والسلام - ثم يمتدح النبي ﷺ وأصحابه من المهاجرين رضي الله عنهم. وهو في هذا يلتقى في الخطوط العامة مع النابغة الذبياني في اعتذاره للنعمان بن المنذر فهو يقول (نبئت أن رسول الله أوعدي) والنابغة يقول (نبئت أن أبا قابوس أوعدي) ولا ريب في أن النابغة متقدم على كعب، ومع ذلك فإننا نجد بوئاً شاسعاً بين الشاعرين في منهج الاعتذار، فالنابغة الذبياني "اتجهت همته في الاعتذار إلى النعمان إلى إظهار تألمه من غضبه عليه، فيشبه نفسه في شدة الألم وقساوته بالمريض على فراشٍ من الشوك، فيقول:

فَبَيْتٌ كَانَ الْعَادَّاتُ فَرَشْنَ لِي هَرَأَساً بِهِ يَعْلى فَرَأَشِي وَيَقْشِبُ

ثم يتعرض إلى الناس في إيجاز فيقول:

فَلَا تَتْرَكْنِي بِالْوَعِيدِ كَأَنْنِي إِلَى النَّاسِ مَطْلَى بِهِ الْقَارِ أَجْرِبُ

أما "كعب" فقد كان جل همه ما لاقاه من الناس، وبغضب الرسول عليه أصبح طريداً منبوذاً بين شماته الأعداء، وتنكر الأصدقاء والأقرباء مما دفعه إلى اليأس والقنوط، وعنايته بتوضيح هذه الآثار المؤلمة دليل على قوة شاعريته، وبراعته وصدق عواطفه، فقد استطاع بذلك كله أن يظهر نفسه بمظهر المذعور المطارد من المجتمع بأسره، وذلك أوقع في النفس وأشد تأثيراً، وهو أنجح في نيل المطلوب من استجلاب العطف، وحفو القلب.

وفي إنكاره للتهمة التي لحقت بالنابغة يعتمد على الحلف، على حين يمر "كعب" بهذا الإنكار مروراً خاطفاً طاوياً هذا الإنكار في العفو عنه، حيث إن ما بلغه من صنع الوشاة، وبذلك لا يحتاج إلى تأكيد ما ذهب إليه من إنكار بالقسم بالحلف كما فعل النابغة والنابغة يعيب على الوشاة، ويصب عليهم جام غضبه، ويصليهم سوط عذابه بأقذع الهجاء ولعله أراد بذلك مخادعة النعمان ونقله إلى معركة جانبية مع الوشاة، ولكن كعباً لم يتعرض لهم بسوء لعلهم أن ذلك اللون غير مقبول لدى الرسول - ﷺ - وأنها بضاعة مزجاة لديه لذلك عزف الشاعر عن ذلك اللون، والنابغة يعد المديح عنصراً مهماً وأساساً في منهج اعتذاره للنعمان، ولذلك عنى به وأطال فيه، وبناءه على المبالغة، لأنه يخاطب ملكاً جاهلياً، ففعل ذلك إرضاءً لغروره، فقبس له من مناقب الجاهلية ما يشاكل طغيانه وجبروته، مع أن كعباً لم يسلك هذا المسلك، فالإسلام طمس كل معالم الجاهلية عدا ما يتفق مع المنهج الإسلامى المستند إلى الكتاب والسنة ولذلك لم يمدح الرسول - ﷺ - إلا بيت واحد، وهو:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ونحن نرى أنه ربما كان قصد الشاعر "كعب بن زهير" أن يتخذ ذلك البيت مدخلاً لمدح المهاجرين، وإلا فما الذى منعه من إطالة المديح إن كان يتغيا غاية مقصورة أو عنصراً أساساً في الاعتذار. ويأخذ بعض النقاد على كعب بن زهير أنه أسرف في وصف ناقته، وأغرب في وصف الأسد، بل وكان معاداً مكروراً، كما

عيب عليه كثرة المحذوفات التى ترتب عليها عناء ومشقة فى الوصول إلى المعنى، وذلك من مثل قوله:

لقد أقوم مقاماً لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

ونحن مع هؤلاء النقاد فيما ذهبوا إليه، حيث إن المقام مقام اعتذار لرسول الله - عليه الصلاة والسلام - فكان أخرى به أن تجيئ أبياته كلها أو جلها على الأقل فى الاعتذار ومدح رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ولكننا نراه لم يمدح النبى - ﷺ - فى قصيدة تبلغ أبياتها ثمانية وخمسين بيتاً إلا بيت واحد وفى الرسول وشيئله، وخلاله وصفاته ما هو متسع لقصائد عدة ودواوين كثيرة تسجل محامده، ومناقبه، وخلقه ﷺ. أما أنه يفرغ جل أبيات القصيدة فى وصف الناقة، وهو فى مقام كهذا المقام فمما لا ريب فيه أن ذلك أمر معيب لدى الشاعر ولا يقبل من مؤيديه دفاع أو اعتراض، بيد أننا لا نغفل محاسن القصيدة، وأن هذه الهنات، وتلك المآخذ لا تحط من قدر الشاعر وعظمة القصيدة، وجمال لفظها، ورصانة أسلوبها، وجمال تعبيراتها، وأن ذلك يقع لكثرة كثرة من فحول الشعراء. وحسب الشاعر أن ملامح الأوصال والقوة تبدو فى جواب القصيدة، ولا غرو فقد كان أبوه شاعراً وخاله "بشامة بن الغدير" شاعراً وأخته سلمى والخنساء شاعرتين وأخوه بجير شاعراً، فكانها هؤلاء القوم خلقوا للشعر، وصيغت نفوسهم منه. فقد جاء الشاعر سرّ أسرته ونسج على منوالهم. ومع هذا، فإن القصيدة حققت هدف صاحبها، ونال ما تمناه من الرسول - عليه الصلاة والسلام - حيث نال الأمان والعفو والمكافأة الغالية، حيث خلع عليه النبى برده مكافأة وإعجاباً. وقد كان للقصيدة أثر بالغ، حيث تعلق بها الشعراء فى كل عصر، وأكثروا من معارضتها، والنسيج على منوالها، حتى إن المؤرخين يرون أن "بندار الأصفهاني" كان يحفظ "تسعمائة قصيدة" مطلع كل قصيدة منها "بانت سعاد" ولم يكتف الشعراء بمعارضة هذه القصيدة فى الوزن والروى فحسب، بل أكثروا من مدح النبى - ﷺ - على كثرة كثرة من الأوزان، والقوافى المتنوعة، وخلفوا من ذلك ثروة موفورة، وأفردوا علماء "تاريخ الأدب" باسم خاص، بل جعلوه لوناً من ألوان "المدائح النبوية" ووسموه باسم يخصه وهو "فن المدائح النبوية".

"أبو محجن الثقفي"

هو عبد الله، وقيل عمرو، وقيل مالك بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وقيل اسمه "أبو محجن" وهو كنيته أيضا. توفي عام ٦٥٠ م^(١). ويقول "الأمدي" هو حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة الثقفي. وهو القائل:

لما رأينا خيلاً محجلة	وقوم بنى فى جحفل لب
طرنا إليهم بكل سلهبة	وكل صافى الأديم كالذهب
وكل عراصة مثقفة	فيها سنان كشعلة الذهب
وكل غضب فى متنه أثر	ومشرفى كالملح ذى شطب
وكل فضفاضة مضاعفة	من نسج داود غير مؤتشب ^(٢)

وهو من ثقيف وكان مولعاً بالشراب مشتهراً به. يقول صاحب الأغاني: هو من الشعراء المخضرمين الذى أدركوا الجاهلية والإسلام، وهو شاعر فارس شجاع معدود فى أولى البأس والنجدة، وكان من المعاقرين للخمر، وأقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه الحدّ عليه مراراً، ثم نفاه إلى جزيرة فى البحر، يقال لها "حوضي"^(٣)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ص ١٣٣ وما بعدها. ط. دار الهلال سنة ١٩٥٧ م. وأيضا أبو الهندي حياته وشعره للمؤلف ص ٦ ط دار الأمانة بالقاهرة.

(٢) المؤلف والمختلف للأمدي ص ٩٥ رقم الترجمة "٢٦٧" مكتبة القدسي دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط الثانية سنة ١٤٠٣ هـ سنة ١٩٨٢ م.

(٣) الأغاني للأصفهاني ج ٢١ ص ١٣٧ وما بعدها ط دار الفكر - بيروت - لبنان.

وبعث معه حارساً يقال له "ابن جهراء" فهرب منه على ساحل البحر، ولحق بسعد بن أبي وقاص، ثم ذكر هربه من الحارس بن جهراء، فقال:

الحمد لله الذى قد نجانى وخلصنى	من ابن جهراء والبوصى قد حبسا
من يجشم البحر والبوصى مركبه	إلى حضوضى، فبئس المركب التمسا
أبلغ لديك أبا حفص مغلغلة	عبد الإله إذا ما غار أو جلسا
أنى أكر على الأولى إذا فزعوا	يوماً وأحبس تحت الراية الفرسا
أغشى الهياج وتغشاني مضاعفة	من الحديد إذا ما بعضهم خنسا

وكان سعد بن أبي وقاص حبسه لشربه الخمر فلما كان يوم القادسية، وبلغه ما يفعل المشركون بالمسلمين، وهو عند "أم ولد لسعد بن أبي وقاص" قال:

كفى حَزناً أن تطعن الخيل بالقنا	وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عثانى الحديدُ غُلقتُ	مغاليقُ من دونى تُصمُّ المناديا
وقد كنتُ ذا أهلٍ كثيرٍ وأخوةٍ	فقد تركونى واحداً لا أخاً لياً
هلمَّ سلاحى، لا أبالك، إني	أرى الحربَ لا تزدادُ إلاَّ تماديا

فقالت له أمّ ولد سعدٍ: أتجعلُ لى إن أنا أطلقتك أن ترجعَ حتى أعيدك فى الوثاق؟ قال: نعم، فأطلقتة، وركب فرساً لسعدٍ بقاءً، وحمل على المشركين، فجعل سعد يقول: لولا أن أبا محجنٍ فى الوثاق لظننتُ أنه أبا محجنٍ وأنها فرسى، وانكشف المشركون وجاء أبو محجن فأعادته فى الوثاق، وأتت سعداً فأخبرته، فأرسل إلى أبي محجن فأطلقه، وقال: والله لا حبستك فيها أبداً، قال أبو محجن: وأنا والله لا أشربها بعد اليوم أبداً.

ودخل ابن أبي محجن على معاوية، فقال له معاوية أبوك الذى يقول:

إذا مت فادفنتى إلى جنب كرمة تُروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفنتنى بالفلاة فإننى أخاف إذا مات أن لا أذوقها

فقال ابن أبى محجن: لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره، قال: وما ذاك؟
قال: قوله:

لا تسأل الناس: ما مالى وكثرته	وسائل القوم: ما حزمى وما خلقتى
القوم أعلم أنى من سراتهم	إذا تطيش يد الرعيدة الفرق
قد أركب الهول مسدولاً عساكره	وأكتم السرفيه ضربة العنق ^(١)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى ط ص ٣٣٦، ٣٣٧ نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت - لبنان سنة ١٩٦٤ م.

شكوى وتطلع إلى الجهاد في سبيل الله لأبي محجن الثقفي

كَفَى حَزْناً أَنْ تَلْتَقَى الْخَيْلُ بِالْقَنَا
إِذَا قَمْتُ عَتَانِي الْحَدِيدُ وَأُغْلِقْتُ
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ
وَقَدْ شَفَتُ نَفْسِي أَنْتَى كُلِّ شَادِقٍ
فَلَلَهُ دَرِيٌّ يَوْمَ أَتْرَكَ مُوْتَقَاً
حُبْسْتُ عَنْ الْحَرْبِ الْعَوَانِ وَقَدْ بَدَتْ
وَلِلَّهِ عَهْدٌ، لَا أَخِيسُ بَعْدَهُ
وَأُتْرِكُ مَشْدُوداً عَلَى وَثَاقِيَا
مَصَارِعُ دُونِي قُلُوبُ تَصُمُّ الْمُنَادِيَا
فَقَدْ تَرَكُونِي وَاحِداً لَا أَخَالِيَا
أَعَالِجُ كِبَالاً مَصْمُتاً قَدْ بَرَانِيَا
وَتَذْهَلُ عَنِّي أَسْرَتِي وَرِحَالِيَا
وَأَعْمَالُ غَيْرِي يَوْمَ ذَاكَ الْعَوَالِيَا
لَسْتُ فَرَجْتُ إِلَّا أَزُورُ الْحَوَائِيَا

الدراسة والتحليل:

لقد كان أبو محجن الثقفي مشغولاً بالشراب ومعاقرته الخمر، فنفاه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى جزيرة في البحر يقال لها.. "حَصَوْضَاء" وضاعت عليه الأرض بما رحبت، ثم رأى معركة القادسية قائمة بين المسلمين والفرس في السنة الثالثة عشرة من الهجرة فوجد "أبو محجن" الفرصة سانحة للتخلص من النفي، ويشارك في الجهاد المقدس، ولكن سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين علم بأمره فأسره، فتضاعف الحزن عليه من كل جانب فانطلق. "أبو محجن" يعزف على قيثارة الشعر هذه الأبيات التي تحمل زفرته، حيث حرم الجهاد في سبيل الله، ثم

يتطلع إلى من يفك أسرهم، ويخلى سبيله ليشارك في المعركة الدائرة بين المسلمين والفرس فكان ذلك سبباً في إطلاق سراحه، وقد اشترك في هذه المعركة وسجل فيها بطولات نادرة، وشجاعة فائقة. وقد جاءت أبياته زفرات متصاعدة وأنات حزينة، كما كانت أبياته استعادة لذكرياته وتصويراً لآلامه، ورغبة في التخلص من الأسر والانطلاق إلى الجهاد ضد الفرس، ثم يتعهد أن يكون بمنأى عن الفجور ومعاقرة الخمر، فينطلق في أبياته قائلاً: إنك في أسى شديد، وألم كبير، ولوعة قاسية، وأشد ما يضاعف أحزاني ويزيد من آلامي أن أرى المعارك محدمة والخيول تكرر وتفر، وتقبل وتدبر، والرماح متشابكة ومع كل هذا أرى نفسي رهين المحبين. السجن والقيود ومع ذلك لا أرى لي مكاناً في هذه المعارك التي تدور رحاها وأنا بمنأى عنها، فإذا أردت الاشتراك في المعارك الدائرة بين المسلمين والفرس حالت دون ذلك قيود من الحديد أثقلوني بها، وأبواب موصدة في وجهي فلم أجد سبيلاً إلى الحرب، أو طريقاً إلى القتال، وقد كنت ذا مال وفير، وأهل كثير، وإخوة وأصدقاء، فضاع المال، وهرب الأهل، وفرّ الخلل والأصدقاء، وأصبحت لا مال لي، ولا أعرف لي أخاً أو صديقاً. وها هو ذا جسمي براه القيد، وأرهقه السجن، وأمضه الأسى، ولم ينقطع عني ذلك العذاب يوماً من الأيام، بل أشهده كل يوم، وأحس به كل لحظة من نهار مما كان سبباً في عذاب نفسي، وسهاد جفني. قلله تلك الإرادة التي أملكها، وهذه القوة التي أحتويها، وللتاريخ هذه الليالي التي أقضيها مكبلاً بالقيود، موثقاً بالأغلال بعيداً عن المال والأهل في ربوع السجن وقد زهدت في الأسرة وغفل عني الأصحاب، وحيل بيني وبين هذه المعركة القاسية، ولم تتح لي فرصة الاشتراك فيها كما أتيت لغيري من الأبطال المغاوير، ولو أنها أتيت لي لحقت ألواناً من المجد، وسجلت صفحات من الخلود، والشاعر في هذه الأبيات يأسى لهذه الحقبة العvisية التي مر به في سجنه ويرسلها زفرات حزينة باكية، ينعي فيها حظه الأغبر الذي قضى عليه أن يعيش في غياهب السجون، ويحال بينه وبين تحقيق المجهود للإسلام والمسلمين، ويأخذ على نفسه عهداً بينه وبين ربه سبحانه، لئن زالت هذه الغمة،

وفرج الله كربه، وخرج من سجنه لن يشرب الخمر مرة أو يزور حاناتها. والأبيات تحس فيها حرارة العاطفة وصدق النفس، فقد خضع "أبو محجن" لعاطفة كانت مزيجاً من الألم الممض، والأسى الزائد، والضيق الشديد وانتقى من العبارات ما يجلى هذه العاطفة القوية. نلمس ذلك في قوله: "كفى حزناً" و"عناني الحديد" و"غلقت مصارع دونى" و"تركونى واحداً لا أخاليا" و"تذهل عنى أسرتى"، كما تتجلى في أبيات الشاعر آثار الإسلام في نفسه، حيث إن الإسلام حوله من شارب الخمر إلى فدائي يقدم نفسه فداءً للإسلام، فتراه معذب النفس والضمير، حيث رأى الحرب مشبوبة بين المسلمين والفرس في وقعة القادسية، ويرى نفسه وقف مكتوف الأيدي، مودعاً غياهب السجن، والفرصة غير متاحة له بالاشتراك في المعركة، كما تظهر آثار الإسلام في العهد الذى قطعه على نفسه فى هجر حانات الخمر، وذلك إذعان للقوة الخفية التى ملكت عليه إحساسه وإرادته، واستولت على فؤاده ولبه. ويكاد النص يخلو من الأخيلة، والصور، فيما عدا ألواناً من الكنايات الرائعة التى أبرزت المعنى ودلت عليه من مثل قوله: "وأترك مشدوداً على وثاقيا" وهى كناية عن تقييده. وقوله "غلقت مصارع دونى" كناية عن حبسه وقوله "تركونى واحداً لا أخاليا" كناية عن الهجر والقطيعة، وقوله "وتذهل عنى أسرتى" كناية عن النسيان والبعد عنه"، وقوله "لا أزور الحوانيا" كناية عن التوبة وترك معاورة الخمر. وفي الأبيات كثرة كثرة من الأساليب الخبرية الدالة على الحسرة والحزن من ذلك قوله "كفى حزناً" وقوله "وقد كنت ذا مال كثير وأخوة" وقوله "حبست عن الحرب العوان" ونرى أن النقاد قد عابوا على أبى محجن استعماله لأسلوب المدح فى قوله "فلله درى" فى البيت الخامس، وهو:

فلله درى يوم أترك موثقاً وتذهل عنى أسرتى ورحالياً

وهم يرون أن المقام لا يتطلب مديحاً، وكان قميناً بالشاعر أن يستخدم أسلوباً سواه دالاً على الأسى والحسرة والتفجع والألم الذى يعتصر القلب، وكان فى مكنته

أن يقول "فلله أمرى". وقد أجاد الشاعر استخدام الموسيقى الملائمة للشكوى حيث اختار القافية اللينة الممثلة في الياء الممدودة وهى أقوى في إبراز أُنينه وأساه. كما تخير من الأوزان بحراً طويلاً يتسع لإفراغ آلامه وأحزانه فيه إلى جانب العبارات الملائمة، والكلمات المناسبة التى تتفق مع الغرض الذى كتب فيه، وذلك من شأنه أن يحقق لوناً من ألوان الموسيقى الخفية، التى تثير فى النفس كثرة كاثرة من مشاعر لحن والإحساس بالجمال. وهذا لون من ألوان الشعر الإسلامى الذى يصور نزعة من نزعات الأبطال والبطولة كما يوضح جانب الحرص على الجهاد فى سبيل الله، والجهاد من أجل العقيدة. وتبين الأبيات مدى تألم المجاهد إذا ما حيل بينه وبين رغبته فى الدفاع عن العقيدة. والجهاد فى سبيل رفعتها، وذلك يوضح مدى تأثير العقيدة فى نفوس المسلمين المجاهدين فى سبيل الله. ويعد الشاعر "أبو محجن الثقفى" من الشعراء المقلّين، ومع هذا فقد جاء شعره صورة صادقة للشعر الإسلامى، حيث إنه جمع إلى وضوح الفكرة نبل المقصد، وسموّ الهدف، وسهولة العبارة، وجودة التعبير، وانتقاء الألفاظ واختيار الصور والأخيلة. كما يومئ النص إلى ما كان يتميز به الخليفة العادل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من حزم وعزم، وحرص على بث روح الإسلام بين صفوف المسلمين، فسيدنا عمر - رضى الله عنه - مع حبه للشعر، وتذوقه له، ورغبته فى الاستماع إليه، لم يعف الشعراء من توقيع العقوبة عليهم حينما يفرطون فى حق دينهم، فقد سجن الشاعر، ونفاه إلى جزيرة "حوضى"^(١) حين علم إدمانه شرب الخمر كما عاقب الخطيئة لهجاء "الزبرقان بن بدر" حتى تاب وأناب وكفّ عن هجاء المسلمين، وهكذا كان الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه مثالاً للحاكم المسلم اليقظ، ورمزاً للحكومة العادلة القوية.

ويعد النص نموذجاً رفيعاً من نماذج التربية الإسلامية، وهو يؤكد مبدأ من المبادئ المتفق عليها بين رجالات التربية فى العصر الحديث، وهو مبدأ العقوبة لمن

(١) الأغاني ج ٢١ ص ١٣٧ وما بعدها. ط. دار الفكر - بيروت - لبنان.

أساء، والعقوبة في نظر الإسلام ليست انتقاماً من المسيء، وإنما هي تشذيب لنفسه، وتهذيب لخلقهِ وإيقاظ لضميره، وتثبيت لإيمانه، ولذا جاءت عقوبة عمر لأبى محجن علاجاً لنفسه المريضة، وإيقاظاً لضميره الغافل، وإيقافاً لنزعتهِ اللاهية. ويرى بعض النقاد أن الإسلام حارب الشعر، وانبرى للشعراء، ونحن نرى أن الإسلام هذب الشعر وأدب الشعراء، فلم يعرف عن الإسلام أنه وقف موقف التحدى من شاعر، إلا إذا حاد عن الحق، أو تهجم على العقيدة، أو تعرض لعورات المسلمين، حينذاك ينبرى الإسلام لهؤلاء الشعراء ليصون دعوته، ويحصن أتباعه ضد ألسن تنطق بالبغي، وتنطلق بالعدوان، وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾^(١).

(١) سورة الشعراء الآيات من ٢٢٤ إلى آخر السورة ٢٢٧.

الحُطَيْئَةُ

هو جَزُول بنِ أوس من بنى قُطَيْعَةَ بن عبس، ولقب الحطِئَةُ لقصره وقربه من الأرض، ويكنى أبا مُليكة، وكان راوية "زهير". وهو جاهلي إسلامي، ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة رسول الله - ﷺ - لأنني لم أسمع له بذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب، إلا أنني وجدته يقول في أول خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - حين ارتدت العرب:

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ حَاضِرًا فَيَا لَهْفَى مَا بَالُ دِينَ أَبِي بَكْرٍ
أَيَّرْتُهَا بِكَرًّا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ فَتِلْكَ وَبَيْتُ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظُّهْرِ

ومن المشهور عنه أنه قيل له حين حضرته الوفاة: أوص يا أبا مليكة مالي لذكور من ولدي دون الإناث، فقالوا: إن الله لم يأمر بهذا فقال: لكنني أمر به! ثم قال: ويل للشعر من الرواة السوء، وقيل له: أوص للمساكين بشيء، فقال: أوصيهم بالمسألة ما عشوا، فإنها تجارة لن تبور! وقيل له: اعتق عبدك "يساراً"^(١). فقال: اشهدوا أنه عبد ما بقي "عيسى"! وقيل له: فلان اليتيم ما توصى له بشيء؟ فقال أوصي بأن تأكلوا ماله، وتنكحوا أمه! قالوا: فليس إلا هذا؟! قال: احملوني على حمار، فإنه لم يمت عليه كريم، لعل أنجو! ثم تمثل بشعر لضابئ بن الحارث البرجمي، فأنشد قائلاً:

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ج ٢٣٨ دار الثقافة - بيروت - لبنان سنة ١٩٦٤ م والأغاني ج ٢ ص ٤١ والخزانة ط ص ٨، ٤ وطبقات ابن سلام الجمحي ص ٩٣ وما بعدها وج ٣ ص ٢٨٧.

رأيت جديد الموت غير لذيذ
ولا طعم راح يشتهى ونبذ
أراح الله منك العالمينا
ولكن لا أخالك تعقلينا
وكانونا على المتحدثيننا
ولقاك العقوق من البنينا
وموتك قد يسر الصالحينا

لكل جديد لذة غير أنسى
له خطة فى الخلق ليست بكري
تنحى فاقعدى منى بعيداً
ألم أوضح لك البغضاء منى
أغربالاً إذا استودعت سرّاً
جزاك الله شراً من عجوز
حيائك ما علمت حياة سوء
وقال لأبيه:

أباً ولحاك من عمّ وخال^(١)
وبئس الشيخ أنت لدى المعال
وأبواب السفاهة والضلال

لحاك الله ثم لحاك حقاً
فنعم الشيخ أنت لدى المخازى
جمعت اللؤم لا حياك ربى
وقال لنفسه:

بسوء فما أدري لمن أنا قائلة
فقبح من وجهه وقبح حامله

أبت شفتاي اليوم إلا تكلماً
أرى لى وجهاً شوه الله خلقه

وقال عبد الرحمن بن أبى بكرة: رأيت الحطيئة بذات عرق فقلت له: يا أبا مليكة
أى الناس أشعر؟ فأخرج لساناً ذلقاً، كأنه لسان حية، فقال: هذا إذا طمع. وهجا
الزبرقان بن بدر فقال:

واقعدُ فإنك أنت الطاعم الكاسى

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

فاستعدى عليه الزبرقان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وأنشده البيت

(١) ذاته ص ٢٤٠.

الأخير "دع المكارم"، فقال له عمر: ما أعلمه هجاءك، أما ترضى أن تكون طاعماً كاسياً؟! قال: إنه لا يكون في الهجاء أشد من هذا، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فسأله عن ذلك فقال: لم يهجه، ولكن سَلَحَ عليه، فحبسه عمر، وقال يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين فقال وهو محبوس:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ	حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة	فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فرق له عمر وخلق سبيله، وأخذ عليه ألا يهجو أحداً من المسلمين.

فى الكرم (للحطينة)

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل
أخى جفوة فيه من الإنس وحشة
وأفرد فى شعب عَجُوزاً إزاءها
حفاة عراة ما اغتدوا خُبزَ ملة
رأى شَبَحاً وسط الظلام فراعهُ
فقال: هيا رباه ضيف ولا قرى
فقال ابنه لما رآه بحيرة
ولا تَعْتَزِرْ بالعُذْمِ علّ الذى طراً
فروى قليلاً ثم أحجم برهة
عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها
فخرت نحوص ذات جَحشٍ سَمينة
فيا بشره إذا جرّها نحو قومه
وباتوا كراماً قد قَضَوْا حقّ ضيفهم
وبات أبوهم من بَشاشته أبا
بيداء لم يعرف بها ساكن رسماً
يرى البؤس فيها من شرّاسته نُعمى
ثلاثة أشباح، تخالهُمُ بهما
ولا عرفوا للبَر من خُلُقوا طُعماً
فلما رأى ضيفاً تَشَمَّرَ واهتماً
بحقك لا تحرّمه تا الليلة اللّحماً
أيا أبت اذبحني ويسر له طُعماً
يَظُنُّ لنا مالاً فيوسعنا ذمّاً
وإن هو لم يذبح فتاه فقد هماً
فأرسل منها من كِنائته سَهْماً
قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً
ويا بشرهم لما رأوا كلّها يَدْمى
وما غرّموا غرماً وقد غنّموا غنماً
لضيفهم والأُم من بشرها أماً

الدراسة والتحليل :

إن الكرم من الأخلاق المحمودة لدى العرب قديماً وحديثاً، اشتهر به الأسخياء والكرماء من أمثال "حاتم الطائي" الذي نزل به قوم في سنة شهباء مجدبة، فلم يجد قرى يقدمه للأضياف غير فرسه المحبب إلى نفسه، والقريب من قلبه، وقد كانت للخيول منزلة سامقة، فقد كانوا يفضلونها على عيالهم، ويرضعونها ألبان الإبل، ويجيعون أولادهم، مفضلين الخيل عليها، ومع هذا نرى حاتماً الطائي ينحر فرسه لأضيافه حتى لا يبيتوا جوعاً.

وقد أثر عنه أنه كان إذا أقبل عليه ضيف؛ هشّ في وجهه وهو يقول:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخضب عندي والزمان جديب
وما الخضب للأضياف أن تكثر القرى لكنما وجه الكريم خصب

ونرى الخطيئة يصور لنا في هذا النص صورة أعرابي معدم، يعيش في أراض مقفرة قاحلة، وينزل به ضيفه فيلبى الأعرابي نداء الكرم المتأصل في نفسه، ويهم بتقديم ابنه لضيفه، لولا ظفره بصيد يقدمه طعاماً للضيف، وفداءً لابنه، وبشراً وسروراً لزوجته، فهو يصور حالة المعدم اللاجئ إلى الصحراء، ونزول الضيف في ساعة متأخرة من الليل، وحيرة العربي في إكرامه، وما يقدمه له من قرى، ثم تنزاح الغمة، وتنكشف الكربة، ويأتى الفرج من أوسع أبوابه ويحل القدر مشكلته، والأزمة التي ورطته، فيرزق بصيد يقدمه قرى للضيف، ثم تحيط به السعادة، ويشمله البشر، كما يسعد الجميع بالحصول على الصيد وحل الأزمة. تلك قصة رجل فقير، يعوزه الفقر، وتصيبه الفاقة، ويخرجه الضيق من بلاده إلى شعاب الجبال، ليكون بمنأى عن الناس، وقد بلغ منه الجوع مبلغه، فيعصب بطنه للتخفيف من آثار الجوع المؤلم، وهو يعيش في صحراء موحشة، وقد غلب عليه الخلق الجاف، وقساوة الطبع، فنفر من الناس، ولجأ إلى الصحراء، فأصبح يرى العيش فيها وحيداً فريداً نعيماً ورغداً. وأنزل الأعرابي أسرته في هذا المكان المقفر النائي، وبصحبه امرأته العجوز وأطفاله الثلاثة الذين أصيبوا بالهزال من شدة

الجوع وبدا الأطفال في شكل أشباح يظنها الرائي حملاناً صغيرة عجفاء، وهم حفاة عراة، خلت بطونهم من الطعام، ولم يذوقوا منذ نشأتهم الخبز. وبينما هو على هذا الحال من جوع وبؤس، إذ رأى في وسط الظلام شبهاً يقبل من بعيد، فاضطرب ووجل، وأجال النظر فإذا بالشبح ضيف قادم؛ فتهاً له وأعد نفسه لاستقباله، وراح يهتف من أعماق نفسه، متجهاً إلى ربه سبحانه قائلاً: يا رب ضيف قادم ولا قرى له، أسالك أن توفقني إلى إكرامه، وألا تحرمه في هذه الليلة طعاماً من اللحم يقدم له، ويرى الابن أباه في هذه الحيرة، فيسرع إليه في لفة وطاعة قائلاً له: يا أبت لا تستبد بك الحيرة، ويسر الطعام لضيفك ولو كان ذلك بذبحي، حتى تقوم بواجبه، وإكرام ضيفته، وحذار أن تعتذر له بالفقر، فليس ذلك عذر الكريم، فأخشى أن يظن الضيف أنك تملك المال، وتمتنع عن إكرامه؛ فيوجه إليك اللوم، ويذمك... ثم نرى الأب يفكر في كلمات الابن، ويقف أمامها مشدوهاً حائراً لا يدرى كيف يصنع، وقد همّ بذبح ابنه، وفاءً بحق الضيف، وخروجاً من هذه الورطة. وبينما هو كذلك، إذ رأى من بعد قطيعاً من حمر الوحش يتقدمهم حمار وحشى كبير، كأنه قائد يقود جنوده في الميدان، وكان القطيع في ظمأ شديد يندفع نحو الماء باحثاً عنه، وكان الأعرابي في ظمأ أشد إلى الظفر به، ثم تحالَج البدوى عاطفة الرحمة، فيمهل القطيع حتى ترتوى عطاشه، ثم يرمى بسهم من كنانته؛ فيصيب هدفه، ويحقق على ما يتغياه. ويتمكن السهم من أتان سمين، قد اكتنز لحماً وشحمًا، فسقطت على الأرض مضرجة في دماها وارتسمت البشرى على وجوه القوم، وما كان أعظم بهجة الأعرابي وهو يجرجر صيده، كما سر أهله بهذا الصيد. وباتت الأسرة قريرة العين، مثلجة الصدر، لأنها وقت حق الضيافة، ونهضت بما يجب عليها نحوه، وحفظت روح ابنها، وحقنت دمه وأخذ الرجل يحيط ضيفه بالود والبشاشة، ويشعره كأنه أبٌّ له وكذلك كانت زوجته في معاملتها الطيبة وروحها الكريمة وشعورها النبيل، وإحساسها الفياض.

والحطيئة في هذه الأبيات يقدم قصة شعرية رائعة بطلها رجل معدم، وأحداثها جرت في مهمة قفر موحش، وزمانها تلك الحقبة المتداخلة من الجاهلية في الإسلام، وأشخاصها يتمثلون في هذا الضيف القادم، وذلك الابن البار، والأم المشاركة

لزوجها في حيرته وفرحته، وفي البأساء والنعماء - وقد بدأ بتمهيد لقصته عرض فيها مسرح الأحداث وعرف ببطلها في تصوير حسى ينبض بالحياة، ويتسم بالبراعة والدقة، ثم ينتقل الشاعر إلى أحداث القصة، فنراه يعرض فصولها، ويصل بها إلى عقدتها في عرض حوارى رائع بين الأب وابنه، ثم يأتى بالحل في تلك المفاجأة التى أدهشت الأب، وأثلجت صدره، ممثلة في هذا القطيع الذى ظهر له دون توقع منه، وانتظار له، ثم كانت نهاية القصة بتلك الابتسامة العريضة التى ارتسمت على شفة الرجل، ثم هذا البشر الذى ارتسم وسرى في جو الأسرة جميعها حين شاهدت الضيف، وأحست أنه راض مطمئن. ونرى الشاعر يبالغ في تصوير القحط، والبؤس، وذلك ليمهد إلى عقدة القصة، فقد ذكر أثر الجوع في الأطفال والحفى والعرى ليوضح شدة البؤس، ثم ساق الضيف لتكون الحيرة أعظم، ووفق الشاعر في الخروج من مأزق القصة وحل عقدتها في الوقت المناسب، فقطيع الحمر الوحشية لم يبد إلا بعد أن هم الرجل بذبح ابنه، فكانت نجاته مفاجأة سارة في القصة، ويبدو أن الخطيئة قد تأثر في قصته هذه بقصة سيدنا إسماعيل عليه السلام وحادث الفداء والتضحية. ولعلك تدرك أن الشاعر كان رائعاً وهو يصور العواطف البشرية المتباينة فنحن نرى أن الأعرابى كان جافى الطبع في بادئ القصة، شرس الخلق، ولكن سرعان ما تبدى عليه الخلق العربى من كرم الضيافة، فقد رحب بضيفه، وهش وجهه، على الرغم مما هو فيه من ضيق وعنت، وصراع نفسى، حيث عاطفة الحنان على فلذة كبده، فهى لا تطاوعه على ذبحه، وعاطفة إكرام ضيفه الذى حلّ به ولا قرى لديه، وهو يخشى أن يتعرض للمذمة، ويصير مضغة للأفواه ويهم بذبح ابنه، ولولا أن تتداركه رحمة ربه، ومع أنه في ميسس الحاجة إلى الصيد، نراه لا يرسل سهمه إلا بعد أن يشرب القطيع، ويرتوى كله من الماء، وبعد ذلك يقبل على صيده، وتنقش غمته، وتنفرج كربتة، وتحل أزمته، ويغمره وأسرته الجبور، ويشملهم السرور، بعد أن بيض الله وجهه أمام ضيفه، وأنقذ أسرته من جوع ظل ثلاثة أيام متتالية، ثم أنقذ ابنه من الموت وسمعته بين الناس، وحتى لا يوصف بالبخل في بيئة

اشتهرت بالكرم. ونرى أن الشاعر كان موفقاً في انتقاء الألفاظ، حيث وفق في اختيار الألفاظ المعبرة لتصوير الأعرابي وجفاء طبعه، وما لحق بأطفاله من هزال صيرهم أشباحاً متحركة، كما كان بارعاً في تصوير التسلل والخفة في الصيد، فيقول: "فانساب نحوها" .. ففي ذلك ما يمكنه من الصيد، حتى لا تفزع الحمر الوحشية وتفر بعيداً عن مجال سهامه كما برع الشاعر في تصوير حرصه على صيده، وذلك في قوله (على أنه منها إلى دمها أظما) لفداء ابنه وقضاء حق ضيفه، وكان أيضاً دقيق الملاحظة في تخير التراكيب الدالة على الحالات النفسية المتنوعة التي انتابتها من حاجته إلى الطعام، وإقبال الضيف عليه، وحيرته حتى تيسر له الطعام، وبات قرير العين مسروراً، كما ظهرت آثار البيئة في اختياره الألفاظ الآتية (بيداء - شعب - بهم - خبز ملة - مسحل - نحوص - كنانة - سهم) كما انتظمت الأبيات ألواناً من الصور والأخيلة مثل الكنايات الطريفة الرائعة في قوله "تشمّر" للدلالة على التهيؤ وقوله "عاصب البطن" كناية عن الجوع وقوله "ما اغتذوا خبز ملة" كناية عن شدة الفقر، وقوله "ما عرفوا للبر مذ خلقوا طعماً"، وقوله "لن يعرف بها ساكن رسماً" كناية عن أنه لا أثر للحياة فيها. كما أتى بتشبيهات رائعة مثل "ثلاثة أشباح تخاهم بهما"، حيث شبه أولاده بصغار الضأن. وهذا لون من ألوان الشعر القصصي المكتمل الجوانب المستوفى الأجزاء حيث نرى الشخصوص، والحوادث، والزمان والمكان، والعقدة، والحل. وكلها من مقومات القصة الحديثة وجميعها متمثل وواضح في القصيدة. ونحن نرى أن هذه القصة من نسج الخيال، فلا يعقل مهما أوتى الإنسان من كرم، وبذل، وسخاء، وعطاء، فلا يمكن أن يقدم على ذبح ابنه، حتى لو ملك قساوة في القلب، وجفاء في الطبع، وأقدم على مثل هذا العمل، فمن غير المعقول أن يأكل الإنسان لحم أخيه. وهل يستسيغ الإنسان ذلك؟، أم هل الحطيئة يعلم بعد ذبح الابن أن الضيف سيأكل من لحمه؟ وهل تعودت العرب أكل لحوم الإنسان؟!..!! إن القصة من نسج الخيال وحده، ولعل الحطيئة أراد بذلك النسيج الخيالي أن يرسم للناس كيف يكون الكرم، حتى يستدر عطفهم، وينال

فضلهم وعطاءهم، وعلى أية حال.. فإن القصة تدل دلالة واضحة على ما كان في الخيال العربى من استعداد للفن القصصى، حيث إن القصيدة فيها مقومات القصة الفنية، وهى فريدة فى الأدب العربى، كما أنها تجسم الخلق العربى الذى يحرص العربى على أن يكون موصوفاً به، وهو "الكرم" الذى كاد يضحى بفلذة كبده فى سبيله. والكرم والشجاعة من صفات العربى. ويعد الشاعر من مدرسة "زهير بن أبى سُلمى المزنى" ورواة شعره، ومن بين الذين تتلمذوا على يديه مع ابنه "كعب بن زهير" فقد كان راوية لشعر أبيه أيضاً، والخطيئة من أقوى الشعراء المخضرمين، يقول عنه صاحب الأغاني: (هو من فحول الشعراء، ومتقدميهم، وفصحائهم، متصرف فى جميع فنون الشعر من المديح، والهجاء والفخر، والنسيب، مجيد فى ذلك أجمع) كما وصفه ابن سلام الجمحي فى كتابه (طبقات فحول الشعراء فى الجاهلية والإسلام) بأنه كان متين الشعر، شرود القافية، وقال عنه أبو عبيدة: (وما تشاء أن تطعن فى شعر شاعر، إلا وجدت فيه مطعنا وما أقل ما تجد ذلك فى شعره). وللخطيئة شعر رائع فى الهجاء والفخر، والغزل وقد طبقت شهرته الآفاق فى فن الهجاء، ويعلل النقاد ذلك بأنه راجع إلى صنعة نسبه وحسبه، وقصره وقربه من الأرض، حتى إنه كان حاقداً على الناس أجمعين، فلذلك نبغ فى الهجاء. يقول ابن قتيبة الدينورى: (ولقب الخطيئة لقصره وقربه من الأرض. ويكنى أبا مُليكة، وكان راوية زهير، وهو جاهلى إسلامى، ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة الرسول - ﷺ - لأنى لم أسمع له بذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب، إلا أنى وجدته. يقول فى أول خلافة أبى بكر - رضى الله عنه - حين ارتدت العرب:

أطعنا رسول الله إذ كان حاضرا فيا لهفتى ما بال دين أبى بكر
أيرثها بكرةً إذا مات بعده فتلك وبيت الله قاسمة الظهر^(١)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى ج١ ص ٢٣٨ نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت - لبنان سنة

ويقول صاحب الاشتقاق: (ولقب الخطيئة لقربه من الأرض وقصره، تشبيهاً بالقملة الصغيرة، يقال لها: "حَطْأَة" وقال قوم: بل اشتقاق الخطيئة من قولهم: (حطأته حطئاً، إذا ضربته بيدك)^(١).

(١) الاشتقاق لابن دريد تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ص ٢٧٩ مكتبة الخانجي بالقاهرة.

حميد بن ثور الهلالي (رضي الله عنه)

هو حميد بن ثور بن حزن بن عمرو بن عامر بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالي^(١). ويكنى كثيراً أبا المثني وقد يكنى أبا الأخضر، أو أبا خالد، أو أبا لاحق^(٢).

وهو شاعر مخضوم عاش في الجاهلية، وقضى الشطر الأكبر من حياته في الإسلام. ولذا عده "ابن سلام الجمحي" وغيره من شعراء الطبقة الرابعة الإسلاميين وقرنه "بنهشل بن حرى". وحميد هذا أدرك زمن عمر بن الخطاب وتوفي على الأرجح في أيام عثمان بن عفان - رضى الله عنهما، على أن من الروايات ما تقول بأنه أدرك بعض خلفاء بني أمية ومنها ما تقول إنه أدرك زمن "عبد الملك بن مروان" خامس خلفاء الدولة الأموية. فقد روى أن حميداً وثلاثة من الشعراء، وهم: "العجير السلولى" و "مزاحم العقيلي" "أوس بن غلفاء الهجيمي" اجتمعوا، وقال كل منهم شعراً في وصف "قطاة" وحكموا بينهم "ليلي الأخيلية" فحكمت "للعجير" فغضب "حميد" وهجاها، "وعبد الملك بن مروان" ولى الخلافة سنة خمس وستين من الهجرة - كما أن في شعره من الشكوى من الهموم وضعف البصر وانحناء الظهر، ما يؤخذ منه أنه قد عمّر طويلاً حقاً.

ويعد "حميد بن ثور الهلالي" من فحول الشعراء المجيدين يقول المرزبانى:

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر جـ ٢ ص ٣٩.

(٢) مقدمة الديوان تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكرة بالهند سنة ١٣٨٤هـ سنة ١٩٦٥م الدار القومية بالقاهرة.

"كان أحد الشعراء الفصحاء، وكان كل من هاجاه غلبه". ويقول الأصمعي:
 (العظماء من شعراء العرب في الإسلام أربعة: راعى الإبل النميري، وتميم بن مقبل
 العجلاني، وابن أحرر الباهلي، وحيد الهلالي) - وذكره ابن أبي جيثمة فيمن روى
 عن النبي ﷺ من الشعراء، وروى أبو فضالة النحوي قال: تقدم عمر إلى الشعراء ألا
 يشب رجل بامرأة، فقال حميد بن ثور وكانت له صحبة، فذكر شعراً فيه:

أبى الله إلا أن سرحة مالك على كل أفتان العضاة تروق
 وهل أنا إن عللت نفسي بسرحة من السرح موجود على طريق^(١)

ودخل على بعض خلفاء بني أمية فقال له: ما جاء بك؟ فقال:

أتاك بى الله الذى فوق من ترى وبرّ ومعروف عليك دليل
 وأنشد له الزبير أيضاً:

فلا يبعد الله الشباب وقولنا إذا ما صبونا مرة ستوب^(٢)

وقد سمع قول النبي - ﷺ - (لو لم يكن لابن آدم إلا الصّحة والسلامة، لكفاه
 بهما داء قاتلاً). فأخذه وقال:

أرى بصري قد رابى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلماً
 ولا يلبث العصران يوماً وليلة إذا طلباً أن يذركا ما يتيمما^(٣)

قد ذكر ابن قتيبة أنه لم يُقل في الكبر شيء أحسن منه، وقد استجاد له في التشبيه
 قوله في فرخ القطة:

كأن على أشداقهِ نور ضوة إذا هو مدّ الجيد منه ليطعما

(١) الإصابة ج ٢ ص ٤٠.

(٢) ذاته.

(٣) مقدمة الديوان

ولم يغلب على شعره اتجاه بارز ييسر وضعه في صف فئة معينة من الشعراء الذين عاصرهم. فلم يكن مداحاً ولا هجّاءً ولم يقصر مديحه ولا هجاءه على أشخاص بأعيانهم، ولم يشد بفكرة معينة، بل كان يقول الشعر في كل ما يتفق له القول فيه، كالتشبيب والمديح والهجاء والشكوى من الزمان والهزم والوصف والغزل، ولعل الوصف والغزل كانا أغلب عليه من غيرهما وفي وصفه ما يدل على أنه شاعر واسع الخيال، قوى الملاحظة دقيق الوصف مُتَّسِقُهُ، كما يتجلى ذلك في قصيدته الميمية الكبيرة ومثل هذه القصيدة تجعلنا نميل إلى أن نربأ به أن يعد في الطبقة الرابعة التي وضعه فيها ابن سلام ومن خبيث هجائه، قوله في رجلين أرسلهما إلى محبوبة له:

وقولا إذا جاوزتما حىّ عامر وجاوزتما الحيين نهذاً وخثعا
نزيعان من جرّم بن ريان إنهم أبوا أن يميروا فى الهزاهز محجماً^(١)

(١) ذاته (المذكور أخيراً).

* راجع إن شئت في ترجمة الشاعر الإسلامي "حميد بن ثور الهلالى" ما يلى: الإصابة جـ ٢ ص ٣٩٥، ٤٠.

الاستيعاب ص ١٤١، ١٤٢.

أسد الغابة جـ ٢ ص ٥٣، ٥٤.

طبقات الشعراء ص ١٩٣.

الأغانى جـ ٩٧، ٩٨.

معجم الأدباء جـ ٤ ص ١٥٣، ١٥٥.

العينى جـ ١ ص ١٧٧، ١٧٩.

الآلئ ص ٣٤٩، ٣٥٥.

الشعر والشعراء ص ٣٤٩، ٣٥٥.

مقصداً: أصيب بسهم لم يخطئه. يقال أقصدت الرجل إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطئ مقاتله فهو

مقصد. الهم: بكسر الهماء وهو الشيخ الفانى، ويعنى بذلك نفسه - الكلاز: الناقة المجتمعة الخلق

الشديد من كلزت الشئ وكلزته إذا جمعته، ويروى كئازاً، والكناز الناقة المجتمعة الخلق الشديدة

أيضاً - جعلداً: عظيمة ضخمة واللام فيه زائدة إذ هو من التجعد، وهو التقبض والتجمع.

العليفى: رجل منسوب إلى "علاف" وهو "زبان أبو جرم" أول من عمل الرجال كأنه صغره تصغير

تعظيم. مؤكداً: الموثق شديد الأثر. نسعيه: مثنى نسع وهو سير يضفر على هيئة أعنة النعال تشد به

الرجال - والحذب: الضخم يريد به سنام الناقة. وملبداً: عليه لبدة من الوبر - السراب: ما يجرى

على وجه الأرض كأنه ماء، ويكون في نصف النهار. اضطراده: شدة خفقته ولمعانه. نجد الماء: سال.

والمراد به هنا العرق الذى يسيل من ذفرى البعير، فيقطر ثم يصفر - وتورده: المقصود به تلونه شبه

لونه بتلون السيد. السيد: الذئب. المرصد: الطريق الذى يرصد الذئب فيه فريسته.

فهو قد طلب منها أن ينتسبإ إلى جرم لأن العرب تأمنها لذلها ولا تخاف منها غارة ولا بأساً وهذا أخبث الهجاء حقاً على أنه كغيره من الشعراء لم يسلم من النقد، فقد أخذوا عليه قوله:

لَمَّا تَخَايَلْتَ الْحُمُولَ حَسْبَتْهَا دَوْمًا بِأَيْلَةٍ نَاعِمًا مَكْمُومًا

وذلك لأن الدوم لا يُكْمُ بكهامة، وإنما الذى يكْم هو التحل، ويروى أنه لما أسلم أتى النبى - ﷺ - وقال:

أَصْبَحَ قَلْبِي مِنْ سُلَيْمَى مُقْصِداً	إِنْ خَطَأَ مِنْهَا وَإِنْ تَعَمَّدَا
فَحَمَلِ الْهَمَّ كِلَا زَا جُلْعَدَا	تَرَى الْعُلَيْفَى عَلَيْهَا مُؤَكَّدَا
وَبَيْنَ نِسْعَيْهِ خِدْبَا مُلْبِداً	إِذَا السَّرَابُ بِالْفَلَاةِ اصَّرَدَا
وَنَجَدَ الْمَاءَ الَّذِى تَوَرَّدَا	تَوَرَّدَ السَّيِّدُ أَرَادَ الْمَرْصَدَا
حَتَّى أَرَانَا رَبَّنَا مُحَمَّداً	يَتَلَوْنَ مِنْ اللَّهِ كِتَاباً مُرْشَدَا
فَلَمْ تُكْذِبْ وَخَرَرْنَا سُجَّدَا	تُعْطَى الزَّكَاةَ وَتُقِيمُ الْمَسْجِدَا

الدراسة والتحليل:

يقول الشاعر "حميد بن ثور الهلالى" حينما أسلم وأتى النبى ﷺ: لقد أصبح قلبى من سليمان خالياً بعد أن رمته بسهم فلم تخطئ مقاتله، فهو مصاب بسهام محبوبته سواء أكان ذلك منها عن طريق العمد أو الخطأ، فحملت الشيخ الفانى الذى تقدمت به السن وأسلمته الشيخوخة إلى عصا عجرا، حملته من الهموم ما دفعه إلى الهجرة، ومغادرة الديار يركب ناقه ضخمة شديدة الخلق مستوية ذات سنام عظيم على رحل صنعه العليفي، وشد رحاله على هذه الناقة الضخمة السنام عليها لبدّة من الوبر الكثيف فى صحراء شاسعة، لا يرى فيها إلا السراب الذى يتلون كالذئب الذى يأتى من كل وجه لؤماً وخيانة ليصطاد فريسته ومع ضخامة الناقة، وقوتها، ونشاطها وسرعتها، فإنها تتصبب عرقاً يسيل من ذفرى ناقته، فيقطر، ثم يصفر، ثم

يتلون تلون الذئب، والشاعر هنا يشبه العرق الذى يسيل من ذفرى ناقته فيقطر ثم يصفر، ثم يتلون شبه ذلك بتلون الذئب الذى يهاجم فريسته من كل وجه خبثاً ولؤماً وخداعاً لتقع في حباله، وتصيدها شراكه، وهذا السراب شديد الخفقان واللمعان وهو يتورد تورّد الذئب الذى يرصد فريسته ليصيدها. والعليفى أراد بالتصغير هنا "التعظيم". وجلعدا: أى عظيماً ضخماً واللام فيه زائدة للضرورة الشعرية. ويتحمل الشاعر هذه الصعاب ويقطع الوهاد والنجاد، متحملاً وعثاء السفر ومشقة الطريق، وهو فى سن الشيخوخة على ناقه ضخمة شديدة قوية تامة الخلق. كل ذلك يتحمّله "حميد بن ثور الهلالى" رضى الله عنه، حتى رأى محمداً - ﷺ - يتلو من الله كتاباً مرشداً وهادياً ومعلماً، وهو القرآن الكريم، فأمن - رضى الله عنه - وأسلم، وخرّ ساجداً لله، وأتاب وصدق برسول الله - ﷺ - وآمن بكل ما جاء به عليه السلام من زكاة وصلاة، وكل ما جاء به الوحي، وخص الزكاة، وإقامة الصلاة لعل ذلك من قبيل الاهتمام بالصلاة والزكاة وأنها من أركان الإسلام الخمسة التى بنى عليها الإسلام، ولأهمية هذين الركنتين، وخاصة الصلاة، وقوله "ونقيم المسجد" كناية عن أنهم يؤدون فريضة الصلاة، وهو من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال، حيث إن المسجد هو مكان الصلاة. ولعل الرواية تكون هكذا.

"فلم نكذب وخررنا سجدا... نعطي الزكاة ونؤم المسجد" والأبيات تدل بما لا يدع مجالاً لريبة أن حميد بن ثور الهلالى - رضى الله عنه - هرع إلى رسول الله - عليه الصلاة والسلام - وأعلن إسلامه كما أن أبياته تدل على تمسكه بتعاليم الإسلام الحنيف.

"نصوص من القرآن الكريم"

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحُدَيْدَ ﴿١٠٠﴾ أَنْ اعْمَلْ سَبِغْتِ وَقَدَّرِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَليحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠١﴾ وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاجُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّخْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ الَمُوتُ مَا دَهَمَهُ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ آلُجُنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الَمُهِينِ ﴾ (١١)

اللغويات

"يا جبال أوبى معه" أى سبحى^(٢). وأصله: التأييب فى السير، وهو أن تسير النهار كله وتنزل ليلاً. قال ابن مقبل:

لَحَقْنَا بِحَيٍّ أَوْ بَوَالِسِيرٍ بَعْدَمَا دَفَعْنَا شَعَاعَ الشَّمْسِ وَالطَّرْفَ يَمْنَحُ^(٣)

وقال آخر:

(١) سورة سبأ الآية ١٠ - ١٤ .

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٨٤ والطبري ص ٥٤ واللسان ج ١ ص ٢١٢.

(٣) القرطبي ص ٢٦٥ والبحر المحيط ص ٢٦٣.

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سيرا إلى الأعداء تأويب^(١)

وقيل "أوبى معه" تصرفى معه على ما يتصرف فيه، فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير فكأنها فعلت ما فصل وقيل:

"أوبى معه" أى رجعى معه التسبيح أو السير، فأمر الجبال كأمر الواحدة المؤنثة لأن جمع ما لا يعقل يجوز فيه ذلك. ومنه "يا خيل الله اركبى" وقد جاء ذلك فى جمع ما يعقل من المؤنث. قال الشاعر:

تركنا الخيل والنعم المندى وقلنا للنساء بها أقيمى
لكن هذا قيل^(٢).

والسابغات: الدروع الواسعة^(٣)، وقيل السابغات: الدروع، وأصله: الوصف بالسبوغ وهو التهام والكمال، وغلب الدروع، فصار كالأبطح. وقال الشاعر:

عليها أسود ضاريات لبوسهم سوابغ بيض لا يخرقها النبل

"وقدر فى السرد" أى فى التسبيح، أى لا تجعل المسامير دقاقاً فتغلق ولا غلاظاً فتكسر الخلق.. ومنه قيل لصانع "خلق الدروع.. سراد وزرّاد"^(٤). وقيل السرد: اتباع الشئ بالشئ من جنسه. وقال الشماخ.

فظن تباعاً خيلنا فى بيوتكم كما تابعت سرّد الغيان الخوارز^(٥)

وفى القرطبي: فظلت تباعاً خيلنا فى بيوتكم^(٦).

(١) البحر المحيط ٢٦٣.

(٢) ذاته ص ٢٦٣.

(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ١٥٣.

(٤) البحر المحيط ص ٢٥٥.

(٥) القرطبي ص ٢٦٧ والبحر المحيط ص ٢٦٤ واللسان ج ٤ ص ١٩٥.

(٦) ديوان الشماخ ص ٥٠.

ويروى البيت برواية أخرى وهى الصحيحة لأنها وردت فى ديوانه:

شككن بأحشاء الذنابى على هدى كما تابعت سرد العنان الخوارز

ويقال للدرع مرودة لأنه توبع فيها الحلق بالحلق. قال الشاعر:

وعليهما سرودتان قضاهما داود أوضع السوابغ تُبَعُّ

وسرد الكلام إذا تابعه مستعجلاً فيه...^(١).

محاريب: مساجد - الجفان: جمع جفنة.

كالجواب: الحياض العظام ومفردها جابية لأنه يجيئ فيها الماء أى يجمع.

قال الأعشى

تروح على آل المخلِّق جفنه كجابية الشيخ العراقى تفهق^(٢)

ويروى البيت برواية أخرى:

نفى الذم عن آل المخلِّق جفنه كجابية الشيخ العراقى تفهق^(٣)

وقال الشاعر

بجفان تعترى نادينا من سديف حين قد هاج الصبر

كالجواب لا تفى مترعة لقرى الأضياف أو للمحتظر

"وقدور راسيات" أى ثوابت فى أماكنها ولا تنقل لعظمها وكبر حجمها. يقال

رسا الشئ إذا ثبت، ويرسو: يثبت - وقيل الجبال: رواسى.

قال الأفوه الأودى:

(١) البحر المحيط ص ٢٥٥.

(٢) الديوان ص ١٣١ تحقيق فوزى المحامى بيروت ويروى "كخاية" وفى اللسان جـ ٨ من ١٤٠.

(٣) البحر المحيط من ٢٥٥ جـ ٧ والعمدة جـ ١ ص ٤٩ لابن رشيق القيروانى.

وقدور كالأربا راسيات وجفان كالجواب مترعه

المنسأة: العصا- مفعله، من نسأت الدابة أى سقتها، ونسأت الشيء أى أخرته
وطردته، ويقال: منسأه بالمد والهمز على وزن مفعالة.

الألوان البلاغية

"لقد آتينا" جواب قسم محذوف والتقدير: والله لقد آتينا، وإسناد "آتينا" إلى "نا" لتعظيم الإيتاء. والتنكير في "فضلاً" لتعظيم والتكثير. "يا جبال" على حقيقته لأنه من الله. والفرق بين ما عليه قوله "ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أو بى معه والطير وألنا له الحديد وبين قولنا "ولقد آتينا داود منا فضلاً" تأويب الجبال معه والطير هو ما في النظم القرآنى من الفخامة الدالة على عزة الربوبية، وكبرياء الألوهية، حيث جعلت الجبال منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا أشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته^(١).

"وألنا له الحديد" تقديم "له" للاختصاص أى ألنا له، لا لسواه، فقد كان لصرفه بيده كيف يشاء^(٢) "أن اعمل سابغات" فيه مجاز محذوف وهو عامل "أن" المفسرة أى أمرناه أن اعمل سابغات، وما جاز بحذف "الموصوف" أى اعمل دروعاً سابغات، "ولسليمان الريح" فيه مجاز بحذف متعلق "اللام" أى وسخرنا الريح فهو في محل نصب، أى وسخرنا له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه وفي هذا رد على من يزعمون تسخير الجن، لأنه لا يكون إلا من الله تعالى "نذقه من عذاب السعير" استعارة مكنية تبعية في "نذقة" أو مكنية في "عذاب". وجفان كالجواب، فيه تشبيه، شبه الصحن بالحياض الكبار في الضخامة والاتساع. "اعملوا آل داود شكراً" مفعول لفاعل محذوف تقديره قائلين "اعملوا" فهو مجاز

(١) راجع الكشف للزمخشري جـ ٣ ص ٣٨١.

(٢) ذاته.

بالحذف^(١). "شكراً" مفعول لأجله إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء والخوف، وقيل إن المعنى "اشكروا آل داود شكراً" فعبّر عن "اشكروا" باعملوا للمشاكلة، "ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته" أسلوب قصر طريقه النقى والإثبات الدال على قوة تأكيد انتفاء علم الغيب عن الجن، وهو قصر صفة على موصوف. في إسناد "دلهم" إلى الدابة: مجاز عقلي: يشير إلى ضعف علم الجن، وحقارة شأنهم.

مثل: مِيضَاءٌ وَمِيضَاءٌ

قال الشاعر:

إذا دببت على المنسأة من كِبِيرٍ فقد تباعد عنك اللهو والغزل^(٢)
وقال آخر:

ضربنا بمسناه وجهه فصار بذاك مهينا ذليلاً
وقال آخر:

وعنس كالأواح الإران نسأتها إذا قيل للمشبوتين: هما هما^(٣)

فلما خرّ: سقط تبينت الجن: يعنى ظهر أمرها وعلمت وتحقق عجزها من أنها لا تعلم الغيب، ولو أنها كانت تعلمه ما خفى عليها موت سيدنا سليمان عليه السلام، فلما خرّ سليمان - عليه السلام - زال الشك في أمرها وكأنها أقرت بالعجز، وقد ظهر أنه خفى عليها بدوامها في الخدمة وهو ميت قال الأعشى: يذكر سليمان النبي - عليه السلام -.

وسخر من جن الملائك تسعة قياما لديه يعملون بلا أجر^(٤)

(١) راجع الشهاب على البيضاوي ج ٧ ص ١٩٤.

(٢) ويروى (من هرم) البحر ص ٢٥٥.

(٣) تفسير غريب القرآن ص ٣٥٥. واللسان ج ١ ١٦٤ والقرطبي ص ٢٨٠.

(٤) لسان العرب لابن منظور ج ١٦ ص ٢٥١ وتأويل مختلف الحديث ص ٣٥٢ وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢١.

والجن من الجتنان وهو الاسترار. يقال: للدرع: جنّه لأنها سترت، ويقال أجنه الليل: أى جعله من سواده فى جنة، وجن عليه الليل.. وإنما سموا جنا لاستتارهم عن أبصار الأنس.

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ أى من الملائكة فسماهم جنا لا جتناهم واستتارهم عن الأبصار.

وقال الأعشى يذكر سليمان النبى - ﷺ.

وسخرّ من جن الملائك.... إلخ.

المعنى الإجمالى

تخوى هذه الآيات صوراً من تسخير الله لمن يشاء من عباده قوى وخلقاً، لا تسخر عادة للبشر، ولكن قدرة الله ومشيتته لا يقيدهما مألوف للبشر، وتتكشف من خلال هذه الصور وتلك حقائق عن الشياطين الذين كان يعبدهم بعض المشركين، أو يطلبون عندهم علم الغيب، وهم عن الغيب محجوبون: وعن أسباب الغواية التى يتسلط بها الشيطان على الإنسان وماله عليه سلطان إلا ما يعطيه من نفسه باختياره، وعن تدبير الله فى كشف ما هو مكنون من عمل الناس، وبروزه فى صورة واقعة لينالوا عليه الجزاء فى الآخرة^(١). وداود: عبد منيب ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾. والسياق يعقب بقصته بعد تلك الإشارة، ويقدم لها بذكر ما آتاه الله له من الفضل ثم يبين هذا الفضل بقوله سبحانه وتعالى ﴿ يَنْجِبَالُ أَوْي مَعَهُ وَالطَّمِرِ ﴾ وتذكر الروايات أن داود عليه السلام أوتى صوتاً جميلاً خارقاً فى الجمال وكان يرتل به مزاميره: وهى تسابيح دينية ورد منها فى كتاب (العهد القديم) والله أعلم بصحته. وفى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - سمع صوت أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه.. يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ (لقد

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج ٥ ص ٨٩٧.

أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود) والآية تصور من فضل الله على داود عليه السلام أنه قد بلغ من الشفافية. والتجرد في تسايبه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات، فاتصلت حقيقتها بحقيقته في تسبيح بارئها وبارئه، ورجعت معه الجبال والطير، إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة تتراوح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع بين كائن من خلق الله وكائن وترتد كلها إلى حقيقتها اللدنية الواحدة فإذا هي تتجاوب في تسبيحها للخالق، وتتلاقى في نغمة واحدة وهى درجة من الإشراق والصفاء والتجرد لا يبلغها أحد إلا بفضل الله يزيح عنه الكيان المادى ويرده إلى كينونته اللدنية يلتقى فيها بهذا الوجود وحين انطلق صوت داود عليه السلام يرتل مزاميره ويمجد خالقه رجعت معه الجبال والطير، وتجاوب الكون بتلك الترانيم السارية في كيانه الواحد، المتجهة، إلى بارئه الواحد، وإنها للحظات عجيبة لا يتذوقها إلا من عنده بها خبر، ومن جرب ولو لحظة من حياته^(١).

ويقول صاحب الدر اللقيط من البحر المحيط: ومعنى تسبيح الجبال "أن الله يخلق تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يسمع من المسبح معجزة لداود عليه السلام. وقيل: كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين. وكانت الجبال تساعده على نوحه بأصداؤها والطير بأصواتها"^(٢).

ولقد ألان الله له الحديد، حتى كان في يده كالشمع، وهو في قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذى يكتب به، فأى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله. وكان داود عليه السلام قد طلب من الله أن يغنيه عن الأكل من مال بيت المال وخزانة الدولة؛ فألان الله له الحديد، وعلمه صنعة لبوس ليأكل من كسب يده، ولقد اختار الله عز وجل له ذلك لما فيه من وقاية وحفظ الأرواح التى خلقها بقدرته

(١) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج ٥ ص ٨٩٧.

(٢) الدر اللقيط من البحر المحيط للقيسى هامش البحر المحيط.

وأخرجها إلى حيز الوجود بإرادته وقوله "وقدر في السرد" إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب، وإنما هو اكتساب، والكسب يكون بقدر الحاجة وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل، ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب، بل حصل به القوت فحسب، ويدل عليه قوله تعالى (واعملوا صالحاً) أى لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح، فأكثرُوا منه ثم أكثرُوا طلب الفعل الصالح. يقول الحق تبارك وتعالى "وإني بما تعملون بصير"^(١).

وقيل إن المراد من تسخير الجبال وتسييحها مع داود، أنها كانت تسبح كما يسبح كل شئ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

وكان - عليه الصلاة والسلام - يفقه تسييحها فيسبح. قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: ألان الله لداود الحديد حتى صار كالشمع. وروى أن داود عليه السلام كان يتنكر فيسأل الناس عن حاله، فعرض له ملك في صورة إنسان، فسأله فقال: نعم العبد لولا خلة فيه. فقال: وما هي؟ قال: يرتزق من بيت المال، ولو أكل من عمل يده لتمت فضائله؛ فدعا الله تعالى أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه، فعلمه صنعة الدروع، وآلان له الحديد؛ فأثرى، وكان ينفق ثلث المال لصالح المسلمين^(٢)، كما وجه القرآن الكريم إلى كيفية صناعتها، بحيث لا يصنعها صغيرة فتضعف، فلا يقوى الدرع على الدفاع، ولا كبيرة فينال لا بسها من خلالها ويصاب نتيجة اتساعها، وذلك أمر إلهي، وتوجيه رباني. ولقد أعطى الله لسليمان عليه السلام الرياح بدلاً من الخيل تجرى بأمره، والدليل على ذلك أنهم لم يقرأوا لا على التوحيد يعنى مفردة فلم يقرأ أحد (الرياح)^(٣) كما أسال له عين القطر وأذاب له معدن النحاس وجعله سائلاً سيول الماء وتلك معجزة لنبي الله داود عليه السلام يستعملها فيما يريد. وإن هذا الأمر كان خرقاً وليس من مألوف البشر فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يصبح قابلاً للطرق، بل كان معجزة، حيث ألان الله

(١) التفسير الكبير لفخر الدين الرازى المجلد السابع ص ٨.

(٢) البحر المحيط ص ٢٦١ بتصرف.

(٣) التفسير الكبير لفخر الدين الرازى - المجلد السابع ص ٩ بتصرف.

سبحانه وتعالى الحديد دون سابق مثال، وبطريقة غير الطريقة التى اعتادها البشر فى إلانة الحديد وذوبانه. وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: أجريت له ثلاثة أيام لبليالهن، وكانت بأرض اليمن قال مجاهد:

فما روى لأحد من قبله^(١). فذاب الحديد فأمر ربه سبحانه وتعالى. وقال "بإذن ربه" بلفظ الرب وقال ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ ولم يقل عن أمر ربه وذلك لأن "الرب" لفظ ينبنى عن الرحمة فعندها كانت الإشارة إلى حفظ سليمان عليه السلام قال ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ وعندما كانت الإشارة إلى تعذيبهم قال ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف^(٢) ومعنى ﴿وَمَنْ يَزِغْ﴾ أى ومن يعدل منهم عن أمرنا الذى أمرناه به من طاعة سليمان عليه السلام نذقه من عذاب السعير. وبذلك يكون المولى تبارك وتعالى أوعدهم بما فى الآخرة من العذاب، حيث إن السعير لا يكون إلا فى الآخرة. ثم قال تعالى ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. قال مجاهد: المحاريب: هى المساجد والتماثيل: هى الصور، والجفان: جمع جفنة - والجواب وهى الحياض العظام.. والراسيات هى الثابتات على الاثافي، فلا تنقل ولا تحمل لعظمها وقدمت المحاريب على التماثيل لأن النقوش تكون فى الأبنية. وقدم الجفان على القدور مع أن القدور آلة الطبخ، والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل لما بين الأبنية الملكة أراد بيان عظمة السماط الذى يمد فى تلك الدور، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيها، والقدور لا يكون فيها، فذكر القدور للمناسبة، وذكرنى حق داود عليه السلام من المحاريب فى التماثيل، لأنه كان ملكا وابن ملك قد وطد له أبوه الملك ومهده له فكانت حاله حالة سلم إذا لم يكن أحد يقدر على محاربتة، وقال عقب: "أن اعمل سابغات" واعملوا صالحاً وعقب ما يعلمه الجن ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ فعقب على كل جملة بما يناسبها^(٣).

(١) البحر المحيط جـ ٧ ص ٢٦١.

(٢) التفسير الكبير للرازى المجلد السابع ص ١٠.

(٣) البحر المحيط جـ ٧ ص ٢٦١ بتصرف.

وروى أن مصلى داود عليه السلام لم يخل قط من قائم يصلى ليلاً أو نهاراً والشكر يكون بقدر البشرية، وأما الشكر الذى يناسب نعم الله، فلا قدرة لأحد عليه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها^(١) والشكر التام الذى يناسب جلال الله ونعمه لا يكون إلا من رضى الله عنهم ثم قال فى آخر الآيات ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(٢). وقد روى أنه كان متكئاً على عصاه حين وافاه أجله، والجن تروح وتحيى مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد، فلم تدرك أنه مات حتى جاءت دابة الأرض. قيل إنها الأرض التى تتغذى بالأخشاب وهى تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشرافة فظيعة فى الأماكن التى تعيش فيها، فلما نخرت عصا سليمان عليه السلام لم تحمله فخرّ على الأرض، وحينئذ علمت الجن موته، وعندئذ ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^(٣) فهؤلاء الجن الذين يعبدهم بعض الناس، هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله، وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب، وبعض الناس يطلبون عندهم أسرار الغيب البعيد، والكل زائل فاني، حيث إن نبي الله سليمان عليه السلام الذى وهبه الله عظمة، وسخر له الرياح، بيد أنه لم ينج من الموت، وإنه قضى عليه الموت تنبيهاً للخلق إلى أن الموت لا بد منه، ولو نجا منه أحد، لكان سليمان أولى بالنجاة منه. وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٤). وقال تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَأَنِ ۖ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٦) وقال

(١) التفسير الكبير المجلد السابع ص ١١ بتصرف.

(٢) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج ٥ ص ٥٩ بتصرف.

(٣) التفسير الكبير - المجلد السابع ص ١١.

(٤) سورة القصص آية رقم ٨٨.

(٥) سورة الرحمن آية رقم ٢٦.

(٦) سورة العنكبوت آية رقم ٥٧.

تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ^(١) وقال تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ^(٢).

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿٢﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافُورَ ﴿٣﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِينَ ﴿٤﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا قَلِيلًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَنَّ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ وَمَن هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٨﴾﴾ صدق الله العظيم.

اللفويات

"سبأ" في سبأ قراءتان. بالفتح على أنه اسم بقعة، وبالجزم مع التنوين على أنه اسم قبيلة، وهو الأظهر لأن الله جعل الآية لسبأ. والفاهم هو العاقل وليس المكان كما أنه لا يحتاج إلى إضمار الأهل على حد قول الله تعالى: (واسأل القرية) أى واسأل أهل القرية قرئ: لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان. وقال ابن عطية "جنتان" مبتدأ وخبره "عن يمين وشمال" وذلك مردود لأنه فكرة ولا مسوغ للابتداء بها إلا أن اعتقد أن "ثم" صفة محذوفة - أى جنتان لهم أو عظيमतان عن يمين وشمال، وعلى ذلك يكون الكلام مغلقاً مما قبله. وجنتان جماعتان من البساتين، جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها. "العرم" يحتمل أن يكون صفة "للسيل" من إضافة الموصوف محذوف تقديره سيل المطر الشديد الذى كان عنه السيل، أو سيل الجزر

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨٥.

(٢) سورة السجدة آية رقم ١١.

العَرم، وقيل إن العَرم اسم الجرز نفسه وأضيف السيل إليه لكونه كان السبب في خراب السد الذى حمله السيل والإضافة تكون بأوى ملابسه^(١).

معانى الألفاظ

العَرم: المثناة^(٢) واحدها عَرمه. قال الشاعر:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ ينون من دون سيله العرما

الأكل الثمر - الخمط: شجر العصاة وهى كل شجرة ذات شوك وقال قتادة: الخمط: الزراك، أكله. والأثل شبيه بالطرفاء، إلا أنه أعظم منه. "وهل نجازى إلا الكفور" قال طاووس: يجازى ولا يغفر له، والمؤمن لا يناقش الحساب. "وقدرنا فيها السير" أى جعلنا ما بين القرية والقرية مقداراً واحداً. "فجعلناهم أحاديث" أى عظة ومعتبراً.

"ومزقناهم كل ممزق" أى فرقناهم فى كل وجهة ولذلك قالت العرب للقوم إذا أخذوا فى وجوه مختلفة "تفرقوا أيدى سبأ" وأيدى سبأ" وأيدى بمعنى مذاهب وطرق.

"ولقد صدق عليهم إبليس ظنه" وذلك أنه قال: لأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله.. فلما اتبعوه وأطاعوه صدق ما ظنه أى فيهم^(٣).

الألوان البلاغية

"جتان عن يمين" فصل هذه عما قبلها لكمال الاتصال لأنها بدل من "آية"

(١) التفسير لفخر الدين الرازى المجلد السابع ص ١١ وما بعدها والبحر المحيط ج ٧ ص ٢٦٨ وما بعدها.

(٢) هى الجراً وحفيرة كثر الماء للسير وقال المغيرة بن حكيم وأبو ميسرة: العَرم فى لغة جمع عرمة وهى كل ما بنى أو سلم ليمسك الماء وقال ابن جبر: العَرم: المثناة بلسان الحبشة.

(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٥٥ وما بعدها.

والتنكير في "آية" للتعظيم، أى آية عظيمة دالة على وجود الصانع المختار "عن يمين وشمال" محسن معنوى، وهو "الطباقي" الموحى بالشمول والإحاطة "كلوا من رزق ربكم": فصل عما قبله: لشبه كمال الاتصال: لأنه استناد على تقدير قول حقيقى أو موحى أو حكاية لما قال لهم نبيهم "فأعرضوا فأرسلنا" العطف بالفاء أو لا يوحى تسبب عن هذه النعم المغدقة من الرب عليهم إعراض سريع من آل سبأ. وفي ذلك تصوير لبشاعة ما قابلوا به نعم الله عليهم وكذلك عطف "فأرسلنا" بالفاء يوحى بسرعة عقابهم. وأنه متسبب عن إعراضهم وإسناد "أرسل" إلى "نا" يوحى بقوة الإرسال وشدة فظاعة آثاره. وذلك يتناسب مع وصف سيل العرم "وبدلناهم بجنتيهم جنتين" في تسمية البدل جنتين مشاكلة: للتهكم لأن اللجنة لا تكون إلا من أعطى ثمراً شهياً^(١). "ذلك جزيناها بما كفروا" تقديم المفعول ذلك للتعظيم والاختصاص^(٢) "وهل نجازى إلا الكفور": الاستفهام متضمن معنى النفي، ولذلك كان الأسلوب أسلوب قصر طريقه النفي والإثبات، وهى من قصر الفعل المستند إلى الفاعل على المفعول "وجعلنا بينهم وبين القرى" العطف هنا عطف قصة على قصة وهو من بدائع العطف فى القرآن الكريم^(٣) "وجعلناهم أحاديث" كناية عن أنهم صاروا إلى حال ضرب به المثل، ويتحدث الناس بهم تعجباً وما كان له عليهم من سلطان "إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شئ حفيظ" إذا فسرنا "نعلم" بمعنى "نميز" كان فيه مجاز مرسل علاقته "السببية" لأن العلم صفة توجب تميزاً^(٤) "من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شئ حفيظ" فى نظم الصلتين نكتة بلاغية حيث جعل صلة الموصول الأول "جملة فعلية" "يؤمن بالآخرة" والموصول الثانى "جملة اسمية" هى: "هو منها فى شك".

(١) راجع الشهاب على البيضاوى، والبيضاوى ج٧ ص ١٩٨، والكشاف للزمخشري ج٣ ص ٢٨٥.

(٢) انظر الشهاب على البيضاوى ج٧ ص ١٩٨.

(٣) الشهاب على البيضاوى ج٧ ص ١٩٨.

(٤) ذاته ج٧ ص ٢٠٠ دار صادر بيروت.

لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه بحكاية أهل سبأ موعظة لقريش وتحذيراً وتنبيهاً على ما جرى لمن كفر بأنعم الله تعالى. والقصة هنا تتحدث عن بطر سبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقهم بعد ذلك وتمزقهم كل ممزق، وهم كانوا على عهد الملكة التي جاء نبأها في سورة النمل مع سليمان في ملك عظيم، وفي خير عميم ذلك إذ يقص الهدهد على سليمان "إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله" وقد أعقب ذلك إسلام الملكة مع سليمان لله رب العالمين "وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين" فالقصة هنا تقع أحداثها بعد إسلام الملكة لله، وتحكى ما حل بهم بعد إعراضهم عن شكره على ما كانوا فيه من نعيم، وخير عميم وتبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رغد ونعيم ما طلب إليهم من الشكر. "لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا لله بلده طيبة ورب غفور" وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبى اليمن وكانوا في أرض خصبة لا تزال منها بقية إلى اليوم، وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة من البحر في الجنوب والشرق، فأقاموا خزناً طبعياً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادى بينهما سدأ به عيون تفتح وتغلق وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد وتحكموا فيها وفق حاجتهم فكان لهم من هذا مورداً مائياً عظيماً، وقد عرف باسم "سد مأرب" وهذه الجفان عن اليمن والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل، ومن ثم كانت آية تذكروا وتذكرنا من جاء بعدنا بالمنعم الوهاب والرزاق الكريم التواب. وقد أمروا بالاستمتاع برزق الله سبحانه وتعالى، فقال تعالى آمراً إياهم بالتمتع: "كلوا من رزق ربكم واشكروا له" ثم ذكروا بالنعمة ألا وهى نعمة البلد الطيب، ثم نعمة الغفران. قال تعالى "بلدة طيبة ورب غفور" سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء وسماحة في السماء بالعفو والغفران، فماذا يقعدهم عن الحمد والشكر؟ ولكنهم لم يذكروا ولم يشكروا، فقال تعالى: "فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم

جنتين ذواتى أكل خط وأثل وشئ من سدر قليل". إنهم أعرضوا عن شكر الله والعمل الصالح فسلبهم الله هذه النعم وحرّمهم من ذلك الرخاء وأرسل عليهم السيل الجارف الذى يحمل الحجارة معه فى طريقه، فحطم السد وسالت المياه فهّدمت البيوت، واقتلعت الأشجار ومزقت السكان الآمنين وتدلّت تلك الجفان الفيح إلى الصحراء، تنتشر فيها الأشجار البرية الخشنة وبدلاً من الفواكه الجميلة الكثيرة، أعطوا خطاً وأثلاً وسدرًا قليلاً. "وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خط وأثل وشئ من سدر قليل" وكأن سائلاً يسأل لم حدث ذلك؟ فنقول إن الإجابة على هذا السؤال تكفّل بها القرآن الكريم، حيث يقول المولى تبارك وتعالى "ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور" فالكفر هنا كفر النعمة... فكل نعمة أنعم الله بها على العبد فلم يشكرها سلّبها الله منه، لأنه يعدّ كافراً بالنعمة، إذ لم يقدم الشكر للمنعم. ويقول الله تعالى: "فاشكروا لى ولا تكفرون".

وقال- صلى الله عليه وسلم:- "التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله" وقال تعالى: "وأما بنعمة ربك فحدث". وكل هذه أدلة تثبت أن المراد بالكفر فى الآية الكريمة هو كفر النعمة، وأن الشاكرين ينزلهم الله نعمه - قال تعالى: "لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد" وكانوا إلى هذا الوقت لا يزالون فى قراهم وبيوتهم. ضيق الله عليهم فى الرزق، وبدلهم من الرفاهية والنعماء خشونة وشدة وبأساء، ولكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم وكان العمران لا يزال متصلاً بينهم وبين القرى المباركة: وهى مكة المكرمة فى الجزيرة العربية أو بيت المقدس فى الشام فقد كانت اليمن لا تزال عامرة فى شمال بلاد "سبأ" ومتصلة بالقرى المباركة والطريق بينهما عامر ومطروق ومأمون "وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيرا فيها لىلى وأياماً آمنين". وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام فكان السفر فى هذه البلاد محدود المسافات، وهم بذلك فى مأمن من قطاع الطرق واللصوص الذين يقطعون الطريق على المسافرين ويحتجزون القوافل وينهبون ما فيها من تجارة ومال،

كما أنهم ليسوا بحاجة لحمل زادهم والماء وما يتطلبه السفر. كما جنبهم عناء الطريق ومشقة السفر الطويل ويسIRON ليلاً ونهاراً وهم آمنون على أرواحهم وأموالهم وتجارتهن ولكن الشقوة غلبت على أهل سبأ فلم يفيدوا من النذير الأول فطلبوا التعب بدلاً من الراحة، والخوف بدلاً من الأمن والشقاء بدلاً من النعيم، حيث إنهم قالوا "ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا".

وكان ذلك المطلب ظلماً منهم لأنفسهم (وظلموا أنفسهم) وسرعان ما استجاب الله لدعوتهم وحقق أمانيتهم في النصب والتعب والمشقة، ففرقهم في كل مكان وجعلهم أحاديث الناس يتحدث الناس بسيرتهم "فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق" فمزقوا وشردوا حتى ضرب بهم المثل، فقليل "تفرقوا أيدي سبأ" وهو مثل يضرب للجماعة المتفرقة في الرأي وغير ذلك، بل كانوا عبرة وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد "إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور" إنه يذكر الصبر إلى جوار الشكر. الصبر في البأساء والشكر في النعماء وفي قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء، وهناك فهم آخر يورده الإمام الشهيد سيد قطب، فيقول قد يكون المقصود بقوله (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة) أى قرى غالبية ذات سلطان بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء حياتهم صحراوية جافة وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعى ومواضع الماء فلم يصبروا على الابتلاء وقالوا "ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا" أى قلل من أسفارنا فقد تعبنا: فبطروا النعمة ولم يصبروا للمحنة ففعل الله بهم ما فعل من تمزيق وتفريق وأصبحوا أثراً بعد حين وأحاديث تروى وقصصاً تحكى وبذلك يجئ التعقيب مناسباً لقلة شكرهم على النعمة وقلة صبرهم على المحنة، وهو قوله تعالى: "إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور" وفي ختام قصة سبأ ينطلق النص من إطار القصة المحدود إلى إطار التدبير الإلهي العام والتقدير المحكم الشامل والسنة الإلهية العامة ويكشف عن الحكمة من القصة كلها. ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوا إلا فريقاً من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، وربك على كل شئ حفيظ، فلقد سلك قوم سبأ هذا المسلك الذى أوصلهم إلى هذه النهاية السيئة،

من الحتم أن يحل بهم ذلك حيث إنهم اتبعوا إبليس في وساوسه وتزيين القبيح لهم حسناً فأوردتهم موارد الردى وهوى بهم إلى مزالق الشر وبذلك صدق عليهم ظنه في قدرته على إغوائهم وإضلالهم. فأضلهم وأغواهم، إلا فريقاً من المؤمنين "فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) وإن قصة سبأ لمتصلة بقصة كل قوم وإنما تصلح تقريراً لحال البشر أجمعين حيث إنها قصة الغواية والهداية، فالهداية طريقها واضح ومعروف وسبلها لا تخفى على أحد، كما أن الغواية سبيلها معروف أيضاً ونتائجها السيئة يعرفها جميع البشر كما يعرفون أبناءهم. "ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء".

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ وَفِيكِهِنَّ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمُ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝﴾ (١).

معاني الألفاظ

"المقربون في جنات النعيم" أى الذين قربت درجاتهم في الجنة من العرش وأعليت مراتبهم، وقرئ في جنة النعيم (٢). "ثلة" ثلة: يعنى: فرقة (٣)، والثلة من ثلثت الشئ أى قطعته (٤)، والثلة: الأمة الكثير من الناس (٥)، قال الشاعر:

(١) سورة الواقعة، من الآية ١١ إلى ٢٦.

(٢) راجع الكشف للزمخشري جـ ٢ ص ١١٣.

(٣) راجع العمدة في غريب القرآن للقيسى ص ٢٩٦.

(٤) راجع القرطبي ج ١٧ ص ٢٠١.

(٥) راجع صحيح البخارى للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن مرزبة البخارى جـ ٦ ص

٥٦ وما بعدها - دار الفكر.

وجاءت إليهم - ثلة - خندقية بجيش كتيار من السيل مزبد

فالثلة: هى الأمة من الناس الكثيرة من الثيل وهو الكسر. كما أن الأمة من " الأم وهو الشج ما كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم، والمعنى على ذلك أن التابعين كثير من الأولين وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم. وقليل من الآخرين وهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام. والبيت شاهد لمعنى الكثرة، فإن كانت الباء تجريدية وهو الظاهر فى النص وإلا فلا استدلال عليها من أن المقام مقام مبالغة ومدح، وخندقية: أى منسوبة إلى قبيلة (خندق) قال:

"أمى خندق وإلياس أبى"

والتيار - الموت - ومزبد: أى كثير الزبد، والمراد كثرة الجيش وتموجهم كتموج السيل المزبد^(١). موضونة: يعنى منسوجة بتركيب بعض أجزائها على بعض كحلق الدرع^(٢). قال الأعشى:

ومن نسج داود موضونة تسير مع الحى عيراً فعيراً^(٣)
وقوله أيضاً:

ويضاء كالنهى موضونة لها قونس فوق جيب البدن

ومنه (وضين الناقة) أى خزامها، لأنه (موضون) أى مفتول - قال الراجز:

إليك تعدو قلقاً وضينها معترضاً فى بطنها جينها

مخالفاً دين النصارى دينها

(١) انظر تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات، تأليف الأستاذ: محيى الدين أفندى ط مكتبة مصطفى

البابى الحلبي وأولاده بمصر - شرح شواهد الكشف سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م ص ٦٧.

(٢) راج البحر المحيط ص ٢٠٢ - ٢٠٣ مكتبة ومطبعة النص الحديثة السعودية - الرياض.

(٣) راجع ديوان الأعشى، والدر اللقيط من البحر المحيط لابن مكتوم القيسى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ.

وقيل: (موضونة) مرمولة بالذهب، مشبكة بالدر والياقوت قد دخل بعضها في بعض، كما توطن حلق الدرع، وقيل متواصلة أدنى بعضها مع بعض، وقيل مضاعفة ما قال ابن عباس: منسوجة بالذهب، وقال عكرمة، مشبكة بالدر والياقوت، والوضن: هو النسيج المضاعف، والنضد^(١) وقال الفراء: موضونة: منسوجة^(٢) (ولدان): أى وصائف قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - والحسن البصرى (الولدان) ها هنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً، ولا حسنة لهم ولا سيئة، وقال سلمان الفارسى، أطفال المشركين هم خدام أهل الجنة^(٣)، وقيل هم غلمان على سن واحدة ما، أنشأهم الله لأهل الجنة، يطوفون عليهم كما شاء من غير ولادة^(٤).

مخلدون: باقون. قال الحسن والكلبي: لا يهرمون ولا يتغيرون، وقال سعد بن جبير مخلدون: أى مقرطون، وقيل: مسورون، ونحوه عن الفراء^(٥). وقيل مفرطون: يعنى ممنطقون من المناطق: وقال عكرمة: منعمون: أكواب: كيزان لا عرى لها، أباريق: لا خراطيم لها: معين: جار على وجه الأرض: لا يصدعون: لا ينادونهم صداد، ولا ينزفون: لا يفنى شراهم.

واختلفوا في (ينزفون): في الصفات والواقعة، فقرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الزاى فيهما (ينزفون)^(٦) ووافقهم عاصم في الواقعة، وقرأ الباقون بفتح (الزاى) في الموضعين (ينزفون)، (وأباريق) الإبريق: فعيل من البريق وهو إناء الشرب: قال الشاعر:

كأن إبريقهم ظبى على شرف مقدم فسبا الكفان ملثوم

(١) راجع البحر المحيط ص ١٩٤ ج ٨ والعمدة للقيسى ص ٢٩٦ والقرطبي ج ٧ ص ٢٠١.

(٢) معانى القرآن للفراء ج ٣ ص ١٢٢.

(٣) هامش الكتاب العمدة للقيسى ص ٢٩٦ والقرطبي ج ١٧ ص ٢٠٢.

(٤) ذاته.

(٥) راجع معانى القرآن للفراء ج ٣ ص ١٢٣.

(٦) راجع النشر في القراءات العشر لابن الجوزى ج ٢ ص ٣٥٧ المتوفى سنة ٨٣٣ هـ.

وقال عدى بن زيد:

وتدعو إلى الصباح فجاءت قينة فى يمينها إبريق

متقابلين: لا ينظر بعضهم فى أقفاء بعض بل يواجه بعضهم بعضاً فهو وصف لحسن العشرة وتشذيب الخلق - مخلدون مبقون أبداً على شكل الولدان لا يتحولون عنه، الأكواب: أوان بلا عرى وخراطيم والأباريق: ذوات الخراطيم فلا يصدعون عنها ولا ينزفون: صدع القوم بالخمير لحقهم الصداق فى رءوسهم منها وقيل معناه: تفرقوا أى لا يصدعون بسببها ولا يفرقون عنها، وقرأ مجاهد لا يصدعون عنها، أى: لا يتصدعون يعنى: لا يفرقون لقوله (يومئذ يصدعون). ويصدعون: يعنى لا يصدع بعضهم بعضاً أى لا يفرقونهم، يتخيرون: يأخذون خيره وأفضله، يشتهون: يتمنون، المكنون: المصون المحفوظ، مخلدون: مبقون أبداً على شكل الولدان لا يتحولون عنه، لغوا: باطلاً تأثيماً: كذبا، أو تأثيماً يعنى إثماً.

مواطن الجمال فى النص القرآنى

وحور عين: كأمثال اللؤلؤ المكنون تشبيه مرسل مجمل، أى كأمثال اللؤلؤ فى بياضه، وصفائه؛ حذف منه وجه الشبه، فهو مرسل مجمل، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قليلاً سلاماً سلاماً، مدح لهم بإنشاء السلام، لأن السلام من جنس اللغو والتأثيم.

المعنى الإجمالى

فى هذه الآيات يبدأ المولى تبارك وتعالى فى بيان هذا النعيم والذى أعده سبحانه للمقربين، فيبدأ بالنعيم الأسنى، بالنعيم الذى لا يبدأ له نعيم، ولا يدنو منه مقيم. إنه نعيم القرب من الله تبارك وتعالى، وجنات النعيم بأسرها لا تساوى ذلك

التقريب، ولا تعدل ذلك النصيب، ومن ثم يقف عند حد هذه الدرجة ليقول: من هم أصحابها؟ إنهم ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين^(١).

فهم عدد محدود من فريق منتقى جله في الأولين، وقليله في الآخرين. والروايات مختلفة فيمن هم الأولون، ومن هم الآخرون؟ فقليل إن الأولين هم السابقون إلى الإيمان، ذوو الدرجة العالية فيه من الأمم السابقة قبل الإسلام، وأن الآخرين هم السابقون إلى من هم من أمة محمد - ﷺ - فالأولون من صدرها، والآخرون من متأخريها، وهذا القول رجحه ابن كثير^(٢) وقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية، وبالآخرين، هذه الأمة واستأنس بقوله عليه السلام: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة^(٣) ونحن نرى أن المقربين من أمة محمد - ﷺ - أكثر من المقربين من غيرهم من الأمم الماضية، حيث إن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس بنص القرآن قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٤).

قال ابن أبي حاتم عبد الله بن بكر المزني: سمعت الحسن أتى على هذه الآية "والسابقون السابقون أولئك المقربون"، فقال: أما السابقون فقد مضوا، ولكن الله جعلنا من أصحاب اليمين. ثم قرأ الحسن "والسابقون السابقون، أولئك المقربون في جنات النعيم - ثلة - من الأولين قال: ثلة ممن مضى من هذه الأمة.

وعن محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية "ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين" قال: كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة. فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمة، كل أمة بحسبها، ولهذا ثبت في الصحاح

(١) راجع في ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ج٢ دار الشروق.

(٢) راجع ابن كثير.

(٣) راجع ابن جرير والطبري.

(٤) آل عمران: الآية ١١٠.

وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم^(١) ثم الذين يلونهم فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله - ﷺ - : "مثل أمتى مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره"^(٢). فهذا الحديث محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، والفضل للمتقدم، مثله كمثل الزرع يحتاج إلى المطر الأول، والثانى، ولكن المعول على المطر الأول، واحتياج الزراعة إليه أشد، وذلك ليثبت ويستوى على سوقه، ولولاه ما ثبت البتة.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم إلى مقام الساعة"^(٣)، وفي لفظ آخر حتى يأتى أمر الله تعالى وهم كذلك) والغرض أن هذه الأمة يعنى أمة محمد ﷺ أشرف الأمم والمقربون فيها أكثر من غيرها، وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. وفي لفظ آخر: (مع كل ألف سبعون ألفاً) - وفي لفظ آخر: مع كل واحد سبعون ألفاً. وقد روى الحافظ عن أبى مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "أما الذى نفسى بيده لأبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض، تقول الملائكة - كما جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام"^(٤). وبعد بيان من هم المقربون، يأخذ في تفصيل منافع الجنة التى أعدت لهم، وهى بطبيعة الحال المنافع التى فى طوقهم أن يتصورها ويدركوها، ووراؤها منافع أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهياؤون لإدراكهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهم يتكثرون على سرر مشبكة بالمعادن الثمينة،

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

(٤) أخرجه الحافظ للطبرانى.

متقابلين في راحة وهناء وخلو بال من النصب والتعب والهموم، والآلام وفي الطمأنينة على ما أسبغه الله عليهم من النعم، فلا خوف من نفادها، يقبل بعضهم على بعض يتسامرون، ويطوف عليهم ولدان مخلدون لا يؤثر فيهم الزمن، ولا تغير شبابهم الأيام التي تغير أهل الأرض، وتنكسه في الخلق، وتصيبه بالأمراض والأوجاع والشيخوخة. وهؤلاء الولدان يطوفون عليهم بأكواب وأباريق وكأس من خمر صافية سائغة للشاربين، لا يفرقون عنها ولا تنفد من أيديهم، فهو نعيم دائم مستمر. قال تعالى: ﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾^(١).

أى أكلها دائم وظلها كذلك، فكل شئ هنا دائم غير مقطوع ولا ممنوع، مع الهدوء والاستقرار والأمن والأمان. قال تعالى: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾^(٢).

كما أنهم يتمتعون بالفواكه الكثيرة المتنوعة المتشابهة، قال تعالى: ﴿ كَلَّمَا زُرْقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ ذَرْبًا قَالُوا هَذَا الَّذِي زُرَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٣).

فلا شئ على غير ما يشتهى السعداء الخالدون، كما أنهم يتمتعون بحور عين كأمثال اللؤلؤ المصون الذى لم يتعرض للمس والنظر حيث لم تثقبه يد، ولم تחדشه عين. وفي هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور الواسعات العيون، وذلك النعيم المتقدم كله حظوا به، وسعدوا بمناله جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من الطاعات والنأى عن السيئات فرضى الله عنهم وجزاهم بما عملوا، فذلك مكافأة لهم جزاء محاربتهم النفس والهوى في دار الفناء، وهم بعد ذلك النعيم كله يحيون في سكون وهدوء وطمأنينة واستقرار، وترفع عن لغو الأحاديث والجدل... فحياتهم كلها سلام في سلام حيث تسلم عليهم الملائكة ويسلم بعضهم

(١) سورة الرعد: آية ٣٥.

(٢) سورة يس: آية ٥٨.

(٣) سورة البقرة آية ٢٥.

على بعض في ذلك الجو الهادئ الناعم الآمن، كما أنهم يبلغون السلام من الرحمن عز وجل، فالحياة جميعها سلام في سلام.

قال تعالى:

﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِمِيدٌ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ۝ ﴾

معانى الألفاظ

مدهنون: مكذبون، مثل: لو تدهن فيدهنون - والمراد بالحديث (القرآن الكريم) أو متهاونون به كمن يدهن في الأمر أى يلين جانبه، ولا يتصلب فيه، تهاوناً به. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون: أى وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به، وقرئ (تُكْذِبُونَ) غير مدينين: يعنى غير مربوبين، وقيل غير محاسبين^(٢) وهو من (دان السلطان الرعية إذا ساسهم) ترجعونها: أى الروح (إن كنتم صادقين) أى فى كفركم بالمحىى المميت، المبدئ المعيد، وقيل (فلولا إن كنتم غير مدينين) أى فهلا. وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ﴾^(٣).

وقال الشاعر:

تعدون عقراً لنيب أفضل مجدكم بنى ضوطرى لولا الكمى المقنعا^(٤)

وقيل: غير مدينين أى غير مجزيين مقهورين، ترجعونها أى تلك النفس وأنتم

(١) سورة الواقعة: الآية ٨١ إلى ٨٧.

(٢) راجع الإتيقان فى علوم القرآن للسيوطى ٣٨/٢ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة المشهد الحسينى ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م.

(٣) سورة يونس: الآية ٩٨ وتفسير الطبرى ١١ / ١١٧. (٤) ديوان جرير ص ٣٢٨ والصاحبى ص ١٣٥.

(٤) ديوان جرير ص ٣٢٨ والصاحبى ص ١٣٥.

ترون كيف تخرج الروح عند ذلك إن كنتم صادقين أنكم تمتنعون من الموت ثم أخبرهم، فقال: "أما إن كان من المقربين فروح وريحان" أى فله: روح وريحان "وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين" أى فيقال سلام لك^(١).

مواطن الجمال فى النص القرآنى

وتجعلون رزقكم: مضاف مقدر، أى شكر رزقكم وهذا هو الأقوى، لأنه ورد مفسراً بهذا فى البخارى وغيره، أما الرزق مجازاً من لازمه، وهو الشكر والمراد برزقكم أى بشكركم وقيل: الرزق من أسماء الشكر، فهو حقيقة^(٢).

ونحن أقرب: أى أعلم لأنه مجاز مرسل، ذكر فيه السبب وأريد المسبب، ولو جعل استعارة تمثيلية باستعارة مجموع أقرب إليه، كان أحسن. وجملة: ونحن أقرب معترضة لا حالية وإن جاز أيضاً^(٣).

المعنى الإجمالى

بعد كل ما تقدم يأتى الإيقاع الأخير للسور الكريمة، وذلك الإيقاع هو لحظة الموت، تلك اللمسة التى ترتعد لها فرائص الإنسان، وترجف لها الأوصال، واللحظة التى ينتهى لديها كل جدال، وبها ينتهى طريق، ويبدأ طريق آخر. ينتهى طريق الحياة الدنيا، ويبدأ طريق الدار الآخرة، حيث لا يملك أحد العودة أو الرجوع للدار الدنيا "حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيها تركت، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون".

ثم تنتهى السورة بعرض مشهد الاحتضار وهو منظر شديد التأثير فى النفس والحس: "فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون".

(١) راجع معانى القرآن للأخفش الأوسط ٤٩٣/٢ وشرح شواهد المعنى ص ٢٢٩ ولسان العرب ٢/

٣٦٠ وتأويل مشكل القرآن ص ٥٤٠.

(٢) ذاته ص ١٥٠.

(٣) ذاته.

ولا تملكون أن تردوا عليه هذه الروح المفارقة قبل أن تفارق وتنتهى "ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون". وفي تصويرى أن الله شاهد لهذا المشهد، قريب من ذلك المحتضر ما يلقي الروح والرهبه والخشوع والله شاهد قريب لكل شئ ولكل حدث، ولكن التصوير هنا والتخييل يكاد يجعل هذه الحقيقة المعروفة جديدة مفاجئة مرهوبة "فلولا إن كنتم غير مدينين" إن كنتم طلقاء قادرين، لا تدينكم قوة، ولا يقدر عليكم ديان "ترجعونها إن كنتم صادقين" فأنتم إذن قادرون على رجوع هذه الروح لو كنتم كما تزعمون. وما أنتم بقادرين^(١). فأنتم شاكون فى هذا الحديث الذى يقال لكم عن النشأة الآخرة، وهل أنتم مكذبون بالقرآن، وما يخبركم به من شأن الدار الآخرة، وما يقرره لكم من أمور عقدية، فجعلتم التكذيب رزقكم الذى تحصلون عليه فى حياتكم، وتدخرونه لآخرتكم، ما أسوأه من رزق، إذن فماذا أنتم فاعلون؟ إذ تبلغ الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون.

ثم يصور الموقف التصوير القرآنى الموحى والذى يرسم ظلال الموقف فى لمسات سريعة ناطقة بكل ما فيه وبكل ما وراءه وما يوحىه. فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، إنا لنكاد نسمع صوت الحشرة، ونبصر تقبض الملامح، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله تعالى "فلولا إذا بلغت الحلقوم" كما نكاد نبصر نظرة العجز، وذ هول اليأس فى ملامح الحاضرين، ومن خلال قوله عز وجل "وأنتم حينئذ تنظرون". هنا فى هذه اللحظة، وقد فرغت الروح من أمر الدنيا، وخلفت وراءها الأرض وما فيها، وهى تستقبل عالماً لا عهد لها به، ولا تملك من أمره شيئاً، إلا ما قدمت من عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فى ذلك الوقت ترى كل شئ، ولكنها لا تستطيع التحدث عن أى شئ، فقد انفصلت عن حوايلها، وليس هناك سوى الجسد الذى يراه الناظرون أمام أعينهم، ولكنهم لا يعلمون شيئاً عما يجرى، وهم فى الوقت ذاته لا يملكون من الأمر شيئاً. هنا تقف قدرة البشر، ويقف علم البشر، وينتهى مجال البشر، وهنا يعرف الجميع أنه عاجز قاصر، ولا مجال للجدل، فهى حقائق واقعة أمام أعينهم،

(١) راجع مشاهد القيامة فى القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ص ١٣٢ دار الشروق.

ولا حول لهم ولا قوة، والأمر هنا يصير كله لله وحده بلا شبهة ولا جدال "ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون" أقرب إليه منكم يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا، أو أقرب إليه بملائكة الموت. وفي ظل هذه المشاعر، مشاعر الرهبة بجلال الموت وارتعاد الفرائض خوفاً وخشية يجئ التحدى الذى يقطع كل قول ويخرس كل لسان، وينهى كل جدال: "فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين".

فلو أن الأمر كما تزعمون أنه لا حساب ولا جزاء، ولا بعث ولا آخرة: "إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين"، فهذا أأنتم طلقاء غير مدينين، ولا محاسبين. إذن فلترجعونها، وقد بلغت الحلقوم لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء، وأنتم حولها تنظرون، وهي ماضية إلى الديمومة والاستمرارية في الحياة الآخرة، وأنتم ساكتون صامتون عاجزون. وهنا تسقط كل تعلقة، وتنقطع كل حجة، وينتهى كل جدل عدا المكابرة دون حجة ولا دليل. فروح وريحان بضم الراء، أراد فرحة ورزق، والريحان الرزق^(١). قال النمر بن كوكب:

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء درر^(٢)

وهذا شاهد لتفسير المفسرين، والعرب تقول: سبحان الله وريحانه، قال أهل اللغة معناه: واسترزاقه، وهو عند سيبويه من الأسماء الموضوعة موضع المصادر. تقول: خرجت أبتغى ريحان الله، أى ابتغى رزقه، وقيل الريحان ها هنا: هو الريحان الذى يشم، وقال أبو عبيدة: (فروح) أراد حياة وبقاء لا موت فيه^(٣)، وروح: بفتح الراء أى يرد، ومن قرأ فروح وريحان بالفتح أراد الرائحة وطيب النسيم، وقد تكون الروح بمعنى الرحمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾^(٤).

أى من رحمته، سماها روحاً لأن الروح والراحة يكونان بها^(٥).

(١) راجع تأويل مشكل القرآن ص ٤٨٧.

(٢) مجاز القرآن للفراء ٤٣/٢.

(٣) ذاته ص ٥٣.

(٤) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٥) لسان العرب لابن منظور والتعذيب للأزهري